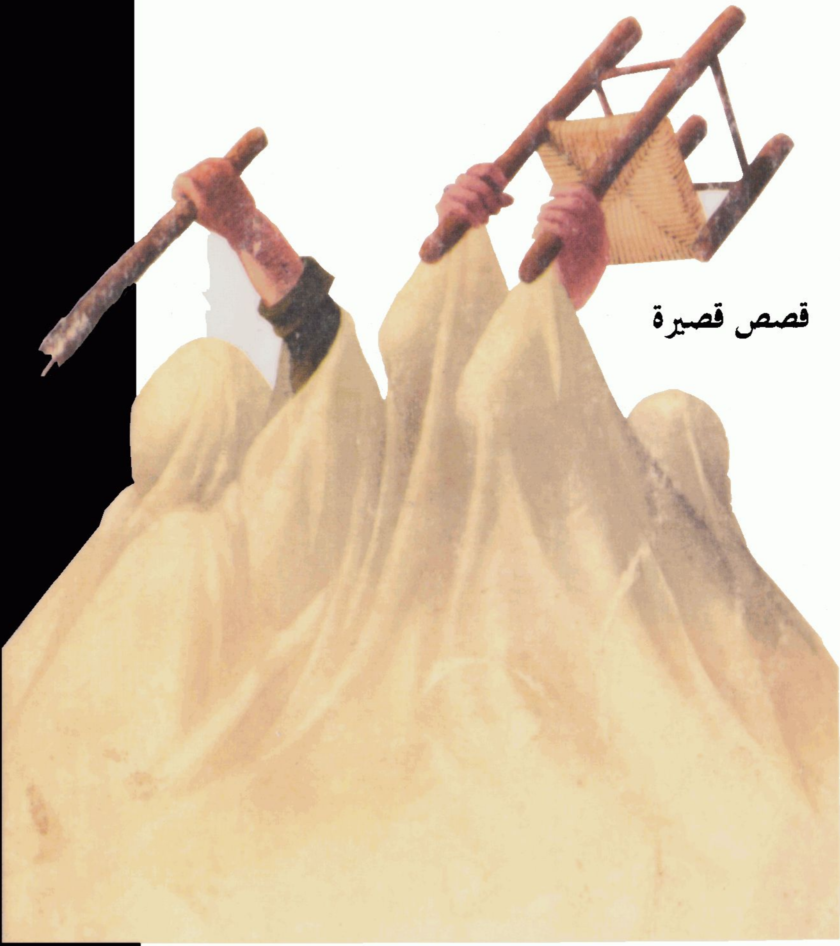
عزيز نسن

صراع العميان



قصص قصيرة

BTJ System AB

800 18 84 3562 CF

نقلها عن التركية
فاروق مصطفى



إلى أي مدى
نعرف نحن
الأتراك
جيراننا
السوريين ؟ والى
أي مدى يعرف
السوريون
جيرانهم
الأتراك ؟
هل نستطيع ان
نجيب بنعم على
هذا السؤال ؟

صراع العميان

الطبعة التركية الأولى :	**1958**
الطبعة التركية الثانية :	**1968**
الطبعة التركية الثالثة :	**1974**
الطبعة التركية الرابعة :	**1976**
الطبعة التركية الخامسة :	**1981**
الطبعة التركية السادسة :	**1983**

عزيز نسين

صراع العميان

" مجموعة قصص قصيرة "

نقلها إلى العربية

عن الطبعة التركية السادسة

فاروق مصطفى

- **صراع العميان**
- المؤلف عزيز نسن
- ترجمها عن التركية فاروق مصطفى
- الطبعة الأولى 1999
- عن دار عبد المنعم – ناشرون

دار عبد المنعم – ناشرون

مؤسسة ثقافية تعنى بنشر الأدب والفكر العربي والعالمي .

سورية – حلب – خلف الفندق السياحي تلفاكس : 2214512 – ص.ب 6567

الاهداء

في الذكرى السابعة لرحيلها..
أمي « المليحة » التـــي حملتنـــي وهنا على وهن
أمي « المليحة » التـــي حملت لي الكون على راحتيها
أرجوحة من ورود
أمي « المليحة » التـــي غادرتنـــي بهدوء،
وعلى غير موعد.
« مليحة ».. يانهر الحنان الدافق الذي توقف!
يانبع العطاء الصافي الذي نضب!
لم أكن أعرف*
أن غيابك
يحمل كل هذا الفراغ !
بحجم الهواء !
بحجم البحار !
بحجم السماء !
لم أكن أعرف
أن رحيلك
يحمل كل هذا الشتاء !
سلام
سلام

سلامْ

سلامٌ عليكِ

يومَ كنتِ

وحيثُ أنتِ

وساعةَ ميقاتِكِ المعلومْ .

هل أتاكِ حديثـــي ؟

هل أتاكِ عهدي

لترابكِ ،

ورفاتِكِ ،

وروحِكِ ،

وريحانِكِ ،

لحنينِك الغافي

تحت أجنحة الخلود ؟

حلب 22 / 2 / 1999

فـاروق

---

* من ديوان ◄ على عتباتِ قلبِكِ أُصَلّي ◄ للشاعرة السيدة هيجة مصري ادلبي، وبإذن خاص منها .

حياته وأعماله:

عزيز نسن[1] في سطور

بقلم: فاروق مصطفى

هو **محمد نصرت نسن**، أهم كاتب تركي تقدمي معاصر، ولد في ٢٠ كانون الأول عام ١٩١٥ في إحدى جزر بحر مرمرة القريبة من استانبول. وبقي مستمراً في الكتابة الساخرة إلى أن توفي في أوائل تموز ١٩٩٥ وقد ناهز الثمانين من عمره، وبلغت أعماله أكثر من ١٠٠ عمل في شتى ألوان الابداع.

هو ابن عائلة معدمة، عاش الحربين العالميتين الأولى والثانية. فبعد أن أنهى الإعدادية العسكرية عام ١٩٣٥ انتسب إلى الكلية الحربية وتخرج منها عام ١٩٣٧، وفي عام ١٩٣٩ تخرج من الكلية العسكرية الفنية برتبة ضابط في الجيش، وفي أثناء متابعته للدراسة في الكلية العسكرية درس في كلية الفنون الجميلة مدة عامين، وهكذا جمع في شخصه شخصيتي عزيز نسن العسكري، وعزيز نسن الشاعر والأديب والظريف، والفنان عاشق الجمال. يعتبر عزيز نسن مع يشار كمال وناظم حكمت من أهم الرموز الأدبية التركية، لكنه

---

١) اسم ساخر، اختاره الكاتب كنية له، يسخر به حتى من شخصه، فيعتبره نكرة مجهولاً ويوجه إليه تساؤلاً هازئاً مستخفاً بصيغة غير العاقل: ما أنت؟ ماذا أنت؟

لم يكن ضمن التيار الذي يمثله ناظم حكمت ويشار كمال، بل كان مناضلاً وطنياً تنويرياً ديمقراطياً مستقلاً.

يعتبر مارك توين تركيا، ويعتبر أحد أبرز ممثلي الهجائية الساخرة في العالم. نال جوائز عالمية عديدة عن قصصه الساخرة، التي ترجمت إلى أغلب اللغات الحية، ومنها اللغة العربية، والتي يكتبها أحياناً على لسان بعض الحيوانات، مستعيداً فيها تراث كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة، بإسقاطها على الحياة ومشاكل العالم الثالث، مبرزاً معاناة انسان هذا العالم، ملبساً المأساة أثواب الكوميديا، منطلقاً في سخريته من تمرد ورفض كبيرين، يقترن التعبير عنهما بقدر غير قليل من القسوة التي تأتي مغلفة بروح الدعابة والمرح الظاهرين لكنها أبداً تقطر بالمرارة والألم.

"موضوعاتي كلها أستقيها من الحياة التي عشتها وأعيشها، هناك أوضاع انسانية لايمكن المرور عليها مرور الكرام، أوجاع وآلام ومشاكل، صخب حياة وظلم وتخلف وأمراض عديدة، ودوري ككاتب هو تكثيف هذه الحالات والتفاعل معها وصبها في قوالب أدبية، علها تبقى في وجدان القارئ كي توجهه نحو خلاصه وخلاص غيره من الناس " . هكذا تحدث عزيز نسن في إحدى حواراته الصحفية مشيراً إلى الينابيع التي تشكل مصادر إلهامه، وملخصاً مدى علاقة أدبه بالحياة التي استطاع أن ينفذ إلى آلامها ومشاكلها، وأن يسلط الضوء ببصيرته ووعيه على الأوضاع الانسانية الرثّة فيها[1].

---

١) من مقالة للأستاذ محمد منصور، مجلة الكفاح العربي، العدد ٨٢٩ حزيران ١٩٩٤.

عانى عزيز نسن وقاسى واعتقل وسجن ووضع تحت المراقبة في كل العهود تقريبا، خاصة في الفترة ما بين عامي ١٩٤٥-١٩٦٠ حيث كانت مدة إقامته في السجن أكثر من حياته خارجه.

يتكلم عن بداياته فيقول: " بين عامي ١٩٤٠-١٩٤٣ كنت عسكريا في قارص وكنت أكتب الشعر والقصص القصيرة، ولما كانت كتابة العسكريين غير مستحبة استعملت منذ ذلك الوقت اسم " عزيز نسن" المستعار، وصرت أنشر قصصي القصيرة بهذا الاسم في مجلة " Millet – الأمة " اليمينية، التي كانت تصدر في أنقرة، ثم صدرت هذه القصص فيما بعد عن دار " Yeni Adam – الرجل الجديد ". أما أشعاري فكنت أنشرها منذ عام ١٩٣٧ باسم " وديعة نسن " في مجلة " Yedigün – الأيام السبعة " وبسبب سجني عام ١٩٤٤، سرحت من الجيش، فجئت إلى استانبول وعملت في مجلة " Yedigün " وكانت بداياتي الصحفية ".

اشتغل في عدد من المهن ليكسب قوته وعمل بقالاً لفترة من الزمن. عمل لفترة في مجلة " Yedigün " ثم عمل مديراً لجريدة " Karagöz – الأراجوز " وفي عام ١٩٤٥ انتقل ليكتب المقالات في جريدة " Tan – الفجر " التي أصبح كاتبها الساخر. لكن المدة لم تطل، إذا أغلقت الجريدة، فعمد إلى إصدار مجلة أسبوعية خاصة به باسم " Cumartesi – السبت " لم تستمر أكثر من ثمانية أسابيع، أي صدر منها ثمانية أعداد فقط. انتقل على أثرها ليعمل في جريدة " Vatan – وطن " مع السعي لإصدار مجلة خاصة به.

وفي كانون الثاني عام ١٩٤٦ تمكن بالتعاون مع الأديب التركي المعروف صباح الدين علي من إصدار جريدته المشهورة " Marko Paşa – ماركو باشا " التي سبقت كل الصحف اليومية ووصلت مبيعاتها إلى ٦٠ ألف نسخة يومياً. لكن

جريدة " Tan – الفجر " التي أصبح كاتبها الساخر. لكن المدة لم تطل، إذا أغلقت الجريدة، فعمد إلى إصدار مجلة أسبوعية خاصة به باسم " Cumartesi – السبت " لم تستمر أكثر من ثمانية أسابيع، أي صدر منها ثمانية أعداد فقط. انتقل على أثرها ليعمل في جريدة " Vatan– وطن " مع السعي لإصدار مجلة خاصة به.

وفي كانون الثاني عام ١٩٤٦ تمكن بالتعاون مع الأديب التركي المعروف صباح الدين علي من إصدار جريدته المشهورة " Marko Paşa – ماركو باشا " التي سبقت كل الصحف اليومية ووصلت مبيعاتها إلى ٦٠ ألف نسخة يومياً. لكن حكم حزب الشعب الجمهوري لم يرضَ عن مقالات عزيز نسن، فاعتقله عام ١٩٤٦ بسبب إحدى مقالاته.

وفي عا م١٩٤٧ حوكم أمام محكمة عرفية عسكرية وحكم عليه بالسجن عشرة أشهر وبالنفي إلى بورصه ثلاثة أشهر ونصف بعد انقضاء مدة سجنه، بسبب مقالة كتبها انتقد فيها مبدأ الرئيس الأمريكي ترومان، وتهجم فيها على القرض الأمريكي لتركيا في ذلك الحين، وقال بوجوب رفض تركيا لهذا القرض الذي ستستوفيه الولايات المتحدة بأن تمتص خيرات تركيا امتصاصا.

ومن الطبيعي أن تمنع " Marko Paşa " عن الصدور مع اعتقال صاحبها، لكن عزيز نسن لم ييأس فأصدر جريدته باسم " Maalum Paşa – معلوم باشا ". وهكذا كلما اعتقل راحت الجريدة تغير اسمها، فلما أغلقت " Maalum Paşa – معلوم باشا " صدرت جريدة "Merhum Paşa – مرحوم باشا ". وبعد إغلاقها صدرت جريدة "Ali Baba – علي بابا ". وبعد إغلاقها صدرت جريدة " Bizim Paşa – باشاتنا ". وبعد إغلاقها صدرت جريدة " Hür Marko Pasa – ماركو

باشا الحر". وآخر الأمر أصدر جريدة " Medet – مدد ".

وفي عام ١٩٥٠ حكم عليه بالسجن ستة عشر شهرا بسبب ترجمته التي لم تطبع لأجزاء من كتاب ماركسي. هكذا فإن عزيز نسن الذي ترك الجيش عام ١٩٤٤ برتبة ملازم أول، ودخل ميدان العمل الصحفي وهو في التاسعة والعشرين من عمره، كان قد أمضى خمس سنوات ونصف في السجن عندما بلغ الخامسة والثلاثين عام ١٩٥٠.

وفي ١٤ أيار ١٩٥٠ استلم الحزب الديمقراطي مقاليد الحكم في تركيا، لكن عزيز نسن الذي خرج من السجن عام ١٩٥١ لم يجد له عملا في الصحافة، فعمد إلى فتح دكان لبيع الكتب، لكنه لم ينجح، فعمد عام ١٩٥٢ إلى فتح محل للتصوير، وبقي يعمل مصوراً حتى عام ١٩٥٤، إلا أنه لم يبتعد عن الكتابة، ففي الوقت نفسه ومنذ عام ١٩٥٢ كان يكتب القصص القصيرة في جريدة " Akbaba – شوحا " تحت أسماء مستعارة، إذ استعمل أكثر من مئتي اسم مستعار غير اسم عزيز نسن الذي انكشف وأدرج في قيود البوليس.

وفي عام ١٩٥٥ أمضى شهوراً عديدة في السجن بدون تحقيق، وبدون أن يعرف سبب اعتقاله، ولم يعد إلى اسم عزيز نسن إلا بعد أن حصل على جائزة السعفة الذهبية العالمية من إيطاليا عام ١٩٥٠، وكانت عودته إلى العمل الصحفي بعد هذا التاريخ أيضاً، إذ عمل محرر زاوية في جريدة " Akşam – المساء " وأسس بالاشتراك مع الروائي التركي المعروف كمال طاهر داراً للنشر أطلق عليها اسم " Fikir – الفكر " إلا أن دار النشر هذه احترقت في شباط ١٩٦٣ نتيجة لحريق مجهول السبب. واحترق بضمنها مئة وعشرة آلاف كتاب.

ومع أنه كان من أنصار حركة الجيش في ٢٧ أيار ١٩٦٠ التي أنهت حكم الحزب الديموقراطي وأعلنت يوم ٢٧ أيار عيداً للحرية، ونادت بإطلاق الحريات. فأيدها بكل جوارحه، واستبشر وتفاءل بها، حتى أنه تبرع بجائزة السعفة الذهبية إلى خزينة الدولة دعماً منه للحركة، إلا أن قادة الحركة كانوا يعتبرونه يسارياً متطرفاً. مع ذلك بعد عام ١٩٦٠ أتيحت له فرص العمل وكتابة المقالات في الصحف التالية على التوالي: " Tanin – طنين " ، " Oncu – التقدمي " ، " Yeni Tanin – الطنين الجديد " ،" Gunaydin – صباح الخير " .

يذكر أنه عندما كان متخفياً في استانبول في إحدى المرات، بقي بلا طعام ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أكل قشور البرانصا التي رماها الجيران في تنكة الزبالة. ويضيف قائلاً: " لا شك أن الانسان الذي يضطر لأكل قشور البرانصا المرمية في تنكة الزبالة، يعرف قيمة ما يجنيه من تعبه، ولا يقبل أن يفرط فيه، أنا ممتن لأني عشت تلك الأيام، فليس من السهل أن يكون المرء انساناً، أما أن يبقى شريفاً في هذا المجتمع..!! ".

ورداً على سؤال صحفي يقول: " عشت حياة قاسية، لا أحب استرجاعها وأغلب تفاصيلها مبثوثة في قصصي القصيرة، وبامكان قارئ قصصي أن يتعرف على الكثير من تفاصيل حياتي، فالكاتب الذي هو أنا، لا تخلو منه قصة واحدة من قصصي، وإذا خلت منه ككاتب، فإن شبحه كإنسان موجود فيها، خاصة الشبح الاجتماعي، أو الظل الاجتماعي بمعنى أدق، وهذه الأشياء البعيدة عن الوثائقية تكون أكثر قرباً من الانسان العادي. " .

انتخب عزيز نسن نائباً لرئيس اتحاد الأدباء الأتراك في ١٦ نيسان ١٩٦٧، ولما تأسست فيما بعد نقابة الكتاب، انتخب رئيساً لنقابة الكتاب الأتراك. والطريف أن

خصومه من الأدباء الأتراك لم يكونوا يعتبرونه اديباً، وكانوا يقللون من شأنه ويصفونه بـ " كاتب النكات " أو " الهازل " علماً بأنه نال جوائز عالمية عديدة على قصصه القصيرة الساخرة. ومن الجوائز العالمية التي نالها نذكر:

١- جائزة السعفة الذهبية من ايطاليا عام ١٩٥٦.

٢- جائزة السعفة الذهبية من ايطاليا عام ١٩٥٧.

٣- جائزة القنفذ الذهبي من بلغاريا عام ١٩٦٦.

٤- جائزة التمساح الأولى من الاتحاد السوفييتي عام ١٩٦٩.

٥- جائزة اللوتس الأولى من اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا عام ١٩٧٥.

وفي تركيا نال:

١- الجائزة الأولى في المسابقة التي أجريت عام ١٩٦٨ تخليداً لذكرى الشاعر الشعبي قراجه أوغلان على مسرحياته الشهيرة باسم " Üç Karagöz Oyunu - ثلاث مسرحيات أراجوزية " التي كتبها في تلك المناسبة، والتي ترجمتها إلى اللغة العربية عام ١٩٩٦ ومازالت قيد الطبع.

٢- جائزة المجمع اللغوي التركي عام ١٩٦٩ على مسرحيته المعروفة " Çiçu - جيجو " .

شارك في العديد من المؤتمرات الأدبية العالمية، بعد أن حصل على جواز سفره لأول مرة في حياته عندما بلغ الخمسين من عمره عام ١٩٦٥ حيث كان قبل هذا التاريخ ممنوعاً من مغادرة البلاد.

ومن المؤتمرات العالمية التي شارك فيها نذكر:

١- مؤتمر اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا في القاهرة في تشرين الثاني عام ١٩٦٦.

٢- مؤتمر اتحاد الكتاب السوفييت في موسكو في أيار عام ١٩٦٧.

٣- مؤتمر اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا في لواندا عاصمة أنغولا في حزيران عام ١٩٧٩.

٤- مؤتمر اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا في هانوي عاصمة فييتنام في خريف عام ١٩٨٢.

أنشأ عزيز نسن وقفاً باسمه نذر له ريع كل أعماله الأدبية، مهمة هذا الوقف رعاية الأطفال الأيتام حتى آخر مراحل الدراسة الجامعية، أو حتى تأمين عمل أو مهنة لمن تعثر منهم في دراسته، بحيث تؤمن لهم المهنة الحياة الكريمة. وقد استقبل الوقف أول فوج من الأطفال الأيتام في نهاية عام ١٩٧٧، وفي هذا الصدد يقول عزيز نسن " لقد عشت طفولة معذبة، إذ عشت في ملجأ للأيتام ، وأعتقد أن حياتي كلها من صنع هذا الملجأ، فلولا رعايته لما كان هناك عزيز نسن، لذلك فإنني مهما فعلت من أجل هذه المؤسسات الاجتماعية فلن أسدد بعض الدين الذي لها في عنقي، لقد خطرت فكرة إقامة الملجأ ببالي عام ١٩٧٤، فقد أدركت حينها أن الجلوس مع هؤلاء الأطفال، وتربيتهم وتأمين الحماية الاجتماعية لهم، وإشعارهم بإنسانيتهم أهم بكثير من التسكع في الشوارع أو الجلوس على المقاهي من أجل الثرثرة، أو ارتياد الحانات من أجل الشرب. وقد خصصت لدعم هذا الملجأ ريع تسعة وخمسين كتابا من كتبي، حيث طبع منها حوالي أربع ملايين نسخة، داخل تركيا وخارجها، وستوفر للملجأ دخلا لا بأس به ".

آثاره الأدبية:

كتب عزيز نسن في الرواية والمسرحية، فضلاً عن القصة القصيرة وقصص الأطفال.

الروايـــة :

الفهلوي[1]	Zübük
الحمار الميت[2]	Ölmüş Eşek
الهداف[3]	Gol Krali
الطريق الوحيد[4]	
بتوش الحلوة	Tatli Betus

---

١) ترجمها إلى العربية الأستاذ عبد القادر عبد اللي عام ١٩٨٧ وصدرت عن دار الأهالي بدمشق وأخرجها الأستاذ هيثم حقي للتلفزيون العربي السوري عام ١٩٩٢ باسم " الدغري ".

٢ ترجمها إلى العربية الأستاذ عبد القادر عبد اللي عام ١٩٨٩ وصدرت عن دار المنارة باللاذقية.

٣ ترجمها إلى العربية الدكتور هاشم حمادي عام ١٩٩٣ بعنوان "ملك الكرة " وصدرت عن دار الحصاد بدمشق.

٤ ترجمها إلى العربية الأستاذ عبد القادر عبد اللي عام ١٩٩٧ وصدرت عن دار المدى بدمشق.

المسرحية :

افعل شيئا يامت[1]	Bisey Yap Met
وحش طوروس[2]	Toros Canavari
ثلاث مسرحيات أراجوزية[3]	Üç Karagöz Oyunu
هل تأتون لحظة	Biraz Gelirmisiniz
أمسك يدي ياروفني	Tut Elimden Rovni
هيا اقتلني ياروحي	Hadi Öldürsene Canikom
حرب المصفرين وماسحي الجوخ	Düdükçulerle Firçacilarin Savaşi
جيجو	Çiçu

---

١ ترجمها إلى العربية الأستاذ جوزيف ناشف ـ سلسلة من المسرح العالمي الكويت عام ١٩٨٦.

٢ ترجمها إلى العربية الأستاذ جوزيف ناشف ـ سلسلة من المسرح العالمي الكويت عام ١٩٨٦.

٣ ترجمتها إلى العربية عام ١٩٩٦ ومازالت قيد الطبع.

القصة القصيرة :

مجنون على السطح[1]	Damda Deli Var
في إحدى الدول[2]	Memleketin Birinde
كيف ينقلب كرسي[3]؟	Bir Koltuk Nasil Devrilir?
لا تنس تكة السروال[4]	
أسفل السافلين[5]	

١ ترجمها إلى العربية الأستاذ محمد الظاهر ومنية سمارة وصدرت عن دار الكرمل بعمان .
٢ ترجمها إلى العربية الأستاذ عبد القادر عبد اللي عام ١٩٩٠ توزيع مكتبة دار الرازي بحلب.
٣ ترجمتها إلى العربية عام ١٩٨٧ وصدرت عن دار الينابيع بدمشق عام ١٩٩٢ ضمن سلسلة الأدب الساخر.
٤ ترجمها إلى العربية الدكتور هاشم حمادي عام ١٩٩٢ وصدرت عن دار الحصاد بدمشق.
٥ ترجمها إلى العربية الأستاذ عبد اللطيف عبد الحميد عام ١٩٩٣ وصدرت عن دار الحصاد بدمشق.

آه منا نحن الحمير[1]	Ah Biz Eşekler
أي حزب سيفوز[2]؟	Hangi Parti Kazanacak?
يحيا الوطن[3]	Vatan Sağ Olsun
صراع العميان[4]	Kör Dōgūşū
البشر يستيقظون	Insanlar Uyaniyor
نصيب الحي	Mahallenin Kismeti
غاز الشرف الأخضر	Yeşil Renkli Namus Gazi
مجنون بمائة ليرة	١٠٠ Liraya BirDeli
يشار لا يعيش ولا لا يعيش	Yaşar ne Yaşar ne Yaşamaz
مرحباً بعامي السبعين	Yetmis Yasim Merhaba

وغيرها كثير جداً.

---

١ ترجمها إلى العربية الأستاذ جمال درمش عام ١٩٩٤ وصدرت عن دار الطليعة الجديدة بدمشق.

٢ ترجمتها إلى العربية عام ١٩٩٥ وصدرت عام ١٩٩٧ عن دار المرساة باللاذقية.

٣ ترجمها إلى العربية الأستاذ جمال درمش عام ١٩٩٦ وصدرت بعنوان " يسلم الوطن ".

٤ ترجمتها إلى العربية عام ١٩٩٩ وصدرت عن دار عبد المنعم – ناشرون بحلب.

مذكرات وخواطر :

Bir Sürgünün Anilari	مذكرات منفي[1]
Poliste	في قسم الشرطة
Benim Delilerim	مجانيني

أدب الرحلات :

Irak ve Misir	العراق ومصر

وجدير بالذكر أنه في فترة عندما بلغت كتبه سبعة وستين كتاباً، ظهر له في إيران أكثر من سبعين كتاباً، إذ كانوا يجمعون مقالاته وقصصه المنشورة في الصحف ويصدرونها في كتاب، قبل أن يجمعها هو في تركيا، وكان الايرانيون يصدرون كتبه إلى أفغانستان أيضاً، وكان عزيز نسن يحار ويدهش ويتمنى لو اطلع على كتبه هذه.

وفي المقدمة الخاصة بالترجمة العربية لـ " مختارات قصصية " من قصص عزيز نسن التي ترجمها الأستاذ فاضل جتكر، يقول عزيز نسن في رسالة مؤرخة في ٢٣/١٠/١٩٨١:

---

١ ترجمها إلى العربية المخرج السينمائي السوري عبد اللطيف عبد الحميد عام ١٩٩٦ وصدرت عن دار الطليعة الجديدة بدمشق بعنوان "ذكريات من المنفى ".

* إلى القراء الأعزاء في سورية

إن مهمة الكاتب الشريف الذي هو أحد العاملين في حقل الثقافة هي العمل على بناء أواصر الصداقة بين الشعوب عن طريق تمكينها من معرفة بعضها بعضا معرفة أكثر قربا، مما يؤدي إلى خدمة السلام، وبالتالي علينا أن نشيد صرح السلام أول الأمر بيننا وبين أقرب الناس إلينا، بيننا وبين جيراننا، تركيا وسوريا جارتان، فإلى أي مدى نعرف نحن الأتراك جيراننا السوريين؟ وإلى أي مدى يعرف السوريون جيرانهم الأتراك؟ هل نستطيع أن نجيب بنعم على هذا السؤال؟

لا !

ألسنا جيرانا؟ ألم نتقاسم التاريخ نفسه في وقت من الأوقات؟ ألم نكن نملك ثقافتنا المشتركة؟ ماذا فعلنا بغية تمكين شعبينا من معرفة أحدهما للآخر؟ ماذا فعلنا في سبيل جعل شعبينا يحب أحدهما الآخر؟

اسمحوا لي أن أصارحكم بالحقيقة التي أردت التحدث عنها، لا بد لنا من الوقوف على الحقيقة المؤلمة وهي أن هناك فتورا وبرودا يسود العلاقة فيما بين الأتراك والعرب، وأن هذا الشكل غير الودي من العلاقة إنما أوجدته الامبريالية بصورة مصطنعة. هذه الحقيقة الداعية للأسف يجب أن نعرفها أولا كي نتمكن من بناء أواصر العلاقات الودية بين شعبينا من جديد.

ففي مصر والعراق رأيت أن الامبريالية الانكليزية بغية إخفاء قيامها باستغلال المصريين والعراقيين، نجحت في تحويل عداء هذين الشعبين نحو امبرياليي العهود الغابرة، نحو الأتراك، ودفع الشعب العربي إلى كره الأتراك مع العمل على قطع

العلاقات الثقافية والتاريخية. وللأسف فإن تلك الجهود تكللت بالنجاح. لقد كان الهدف هو تضليل الشعب العربي وحرف أنظاره عن الامبريالية الانكليزية.

في سورية أيضاً فعلت الامبريالية الفرنسية الشيء نفسه على ما أعتقد. وهكذا فإن الشعوب المتجاورة دفعت إلى أن يكره بعضها بعضاً.

البلاد التي تعرضت للاستغلال عن طريق جيوش الاحتلال هي البلاد العربية.

الامبريالية التي مارست الاستغلال عن طريق جيوش الاحتلال هي الامبريالية الانكليزية والامبريالية الفرنسية.

أما العدو الذي ينبغي أن نواجهه بالعداء فهو المستعمر القديم!.

لا شك أن البلاد العربية عانت من الامبريالية العثمانية. ولكننا إذا دققنا في الأمر تدقيقاً علمياً لا لنضلل أنفسنا ونخدعها، نجد أن الامبريالية العثمانية لم تكن امبريالية عصرية، لم تكن من ذلك النوع من الامبريالية الناشئة عن تورم الرأسمالية بفعل الثورة الصناعية لتندفع إلى البلدان الأخرى بهدف الاستغلال والاستعمار. أضف إلى ذلك أن الامبريالية العثمانية ألحقت بأبنائها في الأناضول بالذات، بالشعب التركي نفسه أضراراً تفوق بكثير تلك التي ألحقتها بالشعب العربي. هذه حقيقة واضحة لا لبس فيها. ولو لم يكن الأمر كذلك لما كانت تركيا اليوم وهي وريثة الامبراطورية العثمانية أطول امبراطوريات التاريخ عمراً ـ إذ دامت خمسة قرون ـ على هذه الدرجة من الفقر، لما كانت بين الدول المتخلفة أو النامية.

لكل تاريخ صفحاته السوداء والبشعة. من الواجب معرفة هذه الصفحات وعدم نسيانها، غير أننا إذا كنا نريد السلام، نريد صداقة الشعوب ـ وهذا هو واجبنا

ـ فإن علينا أن نخرج إلى النور صفحات التاريخ الناصعة والجميلة، لا السوداء والبشعة.

كلا الشعبين العربي والتركي على حد سواء كانا ضحية المؤامرات الامبريالية وقد عانيا الكثير من جراء ذلك، وعلى الرغم من كوننا قد تأخرنا كثيراً فقد آن لنا أن نفهم كوامن هذه المؤامرة لنعمل معاً على إقامة علاقات الود والأخوة التي يفرضها تاريخنا وجغرافيتنا وثقافتنا المشتركة خارج إطار العلاقات الرسمية .

كذلك في المقدمة الخاصة بالترجمة العربية لمجموعته القصصية " في إحدى الدول " التي ترجمها الأستاذ عبد القادر عبد اللي عام ١٩٩٠ يقول عزيز نسن:

*** أعزائي القراء العرب**

الأدب هو النور الذي ينير ظلمات البشرية، إن خدع الامبريالية وأطماعها قد نجحت وللأسف في إبعاد الشعبين العربي والتركي، أحدهما عن الآخر، هذين الشعبين اللذين كانا متعارفين جيدا في الماضي، كان مطلوبا أن يعادا إلى الظلمات.

من غير الممكن أن يتعرف الشعبان التركي والعربي، أحدهما على الآخر من خلال العلاقات بين الحكومات والتجارة فقط، لا يمكن أن يتحابا دون أن يتعارفا عن كثب، وهناك ما يمكن أن يؤدي إلى المعرفة المتبادلة بيننا بالتأكيد، إنه شعرنا ورواياتنا وقصصنا وحكاياتنا، أو بكلمة واحدة: أدبنا .

هذا هو عزيز نسن الأديب العالمي الهجائي الساخر الناقد، المتمرد، الرافض، الغاضب، القاسي، المداعب، الفنان، المرح، الظريف، الشاعر، المتألم، الانسان، الذي

استقى موضوعات أعماله كلها من الحياة التي عاشها كواحد من أبناء عالمها الثالث راصداً الأوجاع والآلام والمشاكل والظلم والتخلف، متفاعلاً معها، نافذاً في أعماقها، والذي رحل عنها في أوائل تموز ١٩٩٥ مخلفاً لنا هذا الكم الهائل من الأعمال الروائية والمسرحية والقصصية الهاجية بهجاء ظاهره المرح وباطنه الغضب والرفض والسخط والتمرد.

وبفقد عزيز نسن، يفقد الأدب الساخر أحد أكبر مؤسسيه وأبرز ممثليه في العالم، حيث لحق، وانضم إلى الخالدين من أعلام الأدب الهجائي الساخر، الذين رحلوا: مارك توين، وفولتير، وبرنارد شو.

صراع العميان

١

كان للبلدة مقهيان، كمـا كـانت هناك مقـهى آدم بـودور << القصـير >> لكـن مقـهاه تلـك كـانت بعـد الخمـارة خارج البلدة.

أنا لا أحسب مقـهى آدم بـودور فهي بعيدة وصغيرة، إضافـة إلى أن آدم بـودور رجـل غريـب لا ينتمـي لأي حزب، لذلك لم يكن رواد مقهاه كثراً.

وكان رجال البلـدة منقسـمين إلى قسـمين.. قسـم يرتـاد مقـهى اسـحق الترزي<< الخيـاط >>، والقسم الآخـر يرتاد مقهى كاظم طوبال << الأعرج>>.

سابقاً كان للبلـدة مقـهى واحـدة فقط هي مقهى كاظم طوبال، ثم لما بـرز في الساحة شيء اسمه<< المعارضـة >> فإن كاظم طوبال هذا ودون أن ينظر إلى ساقه الواحدة ـ هكذا يقول القسم الآخر من أهل البلدة ـ انضم إلى المعارضـــــة

<< ولك أيها الأعرج هل سيركِّب لك المعارضون ساقاً اصطناعية ؟ >> .

ساق كاظم طوبال مبتورة من عند الركبة، وكان يمشي متأبطاً عكازاً يستند إليه، ولما قلب كاظم طوبال هذا مقهاه إلى مقر للمعارضة في البلدة، خفَّت أقدام الناس عن المقهى خوفاً.

<< ولك أيها الأعرج، إذا جرت الانتخابات فإنهم يكسرون ساقك الأخرى، عندها تضع محركاً على أنفك وتصبح سيارة >> هكذا كانوا يقولون لكاظم. أما هو فلم يكن يصغي لما يقال. لن يرتاد أحد مقهى كاظم طوبال خوفاً، ولكن لا توجد مقهى أخرى. ومقهى آدم بودور بعيدة، ثم إن مقهى كاظم طوبال هذا شبيهة بمقاهي المدن الكبرى، فعلى جداريها ثبتت مرآتان، مرآتان كبيرتان، فالداخل يرى نفسه في المرآة، والخارج يرى نفسه في المرآة، والجالس يرى نفسه في المرآة، ويكفي الجالس على كرسي القش أن يتفرج على نفسه في المرآة وهو يفتل شاربيه.

وكان كاظم طوبال واثقاً من مراياه ومعتمداً عليها... إذ كان يردد: << طالما هذه المرايا لدي فإنهم سيأتون شاؤوا أم أبوا >> .

وعلى ذلك قسم اسحق الترزي دكانه إلى قسمين وجعل أحدهما مقهى، وصار أنصار الحزب الحاكم يترددون على مقهاه هذه، والمعارضون يترددون على مقهى كاظم طوبال. وكانت المعارضة تبدو وكأنها غير موجودة في البلدة في ذلك الوقت، إذ كان المعارضون بضعة أفراد متفرقين...

<< ولك أيها الأعرج، لتنته هذه الانتخابات وسترى أنهم سيقطعون ساقك الأخرى، عندها ضع محركاً على أنفك وامش واصرخ أنا سيارة >>.

حان الوقت وجرت الانتخابات، لكن الأمور سارت بعكس ما كان متوقعاً لها. إذ فاز حزب كاظم طوبال في الانتخابات! وظهر في الصناديق خمسة عشر إلى عشرين صوتاً للحزب الآخر. دهش الجميع لهذه النتيجة إلا كاظم طوبال فإنه لم يدهش، وقال:

ـ كنت أعلم مسبقاً أن الأمور ستسير هكذا.

ولما سألوه:

ـ ومن أين علمت يا أعرج؟

أجاب:

ـ أيمكن أن لا أعرف، كان ذلك واضحاً من عدم ارتيادهم مقهاي، هم لم يترددوا على مقهاي خوفاً من الحكومة، لكنهم في الصناديق أعطوا أصواتهم لحزبنا.

هكذا كان الوضع عندما قدمت إلى هذه البلدة، كان حزب كاظم طوبال في السلطة، وحزب اسحق الترزي في المعارضة بعد أن سقط من السلطة، أي أنهم كانوا قد تبادلوا مواقعهم. وكان كاظم طوبال قد ركّب لرجله العرجاء ساقاً اصطناعية في أحد مشافي أنقره.

انقسمت البلدة إلى قسمين، وراح المعارضون يترددون على مقهى اسحق الترزي، والمؤيدون يترددون على مقهى كاظم طوبال. وكانت بين الفريقين عداوة ظاهرة للعيان. إذ قطعوا حتى التحية فيما بينهم، وغيَّروا طرق ذهابهم وإيابهم إلى المقهيين حتى لا يصادف بعضهم بعضاً.

هم لم يفصلوا المقهيين فقط، بل فصلوا حتى البقالين والحلاقين واختص كل فريق بقسم من هؤلاء. وعملوا ما بوسعهم كي لا يلتقوا ويتبادلوا التحيات، وإلا لو التقوا وتحادثوا مرة أو مرتين لانتهى حديثهم إلى شجار بسبب تحزبهم.

وكان وضعنا نحن الموظفين صعباً جداً، إذ اشتكوا إلى أنقرة على عدة موظفين كانوا قبلي بدعوى أنهم يترددون على مقهى اسحق الترزي المعارض فنقلوهم من البلدة إلى أماكن اخرى. لذلك كان الموظفون يحذرون من ارتياد مقهى اسحق الترزي، عدا طبيب البلدية وصديقه أحد موظفي العدلية، إذ لم يكونا يبرحان مقهى اسحق الترزي، كما لم يكونا يعتبان مقهى كاظم طوبال. وكان الاثنان من أعز أصدقائي. وفي إحدى الأمسيات وفيما كنا نحتسي الخمر قلت لهما:

ـ هذا الذي تفعلانه ليس صواباً ياصديقيَّ.

فتساءلا:

ـ ماذا نفعل؟

ـ وماذا ستفعلان أكثر من ذلك! إنكما تخالفان القانون هكذا صراحة وعلى المكشوف. أنتما تعلمان أن الاشتغال بالسياسة محظور على الموظفين قانوناً، وأنتما لا تبارحان مقهى المعارضة، وهذا يعني صراحة أنكما تعملان بالسياسة. أليست هي مقهى بالنتيجة، حسناً كل المقاهي سواء، وبدلاً من أن تذهبا إلى مقهى المعارضة وتعملا بالسياسة، اذهبا إلى مقهى كاظم طوبال.

ضحك طبيب البلدية وقال:

ـ سوف تفهم فيما بعد سبب اشتغالنا بالسياسة..

فهمت المسألة بعد خمسة عشر يوماً إذ نُقِلَ الاثنان إلى منطقة أخرى بعيدة. وفيما هما يغادران البلدة أوضحا لي أنهما ما كانا يرغبان في البقاء في هذه البلدة، وأنهما رفعا طلبات النقل طلباً إثر طلب << انقلونا من هنا إلى أي مكان تشاؤون. >> لكن الطلبات لم تجدِ نفعاً، فصارا لا يبرحان مقهى المعارضة، ولم يستغرق الأمر شهراً واحداً حتى نُقلا.

قال لي الطبيب أثناء مغادرته:

ـ هم ما كانوا لينقلونا إلى مكان أسوأ من هنا على أية حال...

وبما أنني لم أكن أرغب في مغادرة هذه البلدة بعد، لذلك لم أكن أعمل بالسياسة؛ أي ما كنت أذهب إلى مقهى المعارضة وأعمل بالسياسة، ولا كنت أذهب إلى مقهى كاظم طوبال فأُغضب المعارضين. لكن المشكلة أن البلدة صغيرة ويكاد الانسان ينفجر فيها ضيقاً، ولا مكان آخر سوى المقهى للذهاب إليه وقضاء

الوقت فيه، وكانت مقهى كاظم طوبال شديدة الازدحام والضجيج. ولكي أظهر حيادي صرت أتردد على المقهيين، فإن جلست نصف ساعة في مقهى اسحق الترزي المعارض، جلست ساعة في مقهى كاظم طوبال. هكذا وازنت ميزان السياسة وأنقذت الموقف.

كان رواد مقهى المعارضة قليلين، وكانوا يتناقصون يوماً إثر يوم. وكنت قد صرت صديقاً حميماً لكاظم طوبال، وكنا نفضي همومنا لبعض حين أذهب إلى مقهاه. وفي أحد الأيام وفيما كنا نتحدث عن أوضاع الأحزاب قال:

ـ أأقول لك شيئاً ياسيدي، ولكن على أن يبقى ذلك بيننا، لقد فقد حزبنا شعبيته.

ظننت أنه يستدرجني ويختبرني فقلت:

ـ لا ياروحي، إن حزبكم صامد كالطود.

ـ لا تلقِ بالاً لذلك، انظر إن مقهانا مزدحمة جداً بينما لا يوجد أحد في مقهى اسحق الترزي، وهذا له دلالاته الكثيرة لمن يفهم. فهم يزدحمون هنا خشية من الحكومة وتحسباً لما قد يحدث أو لا يحدث. ولكن إن جرت انتخابات سترى أن كلهم سيعطون أصواتهم للحزب الآخر. وقد حدث هذا في الانتخاب الماضي.

ـ طيب، ماذا ستفعلون؟

ـ إننا نفكر ببعض الأشياء. سوف يأتي مفتش الحزب قريباً وسوف نفعل شيئاً ما.

وبعد فترة قصيرة من الزمن عقدت عدة اجتماعات حزبية حاشدة في مقهى كاظم طوبال. وبعدها بفترة أيضاً قدمت إلى البلدة فرقة استعراضية اسمها فرقة << شنسس >> قال أهل البلدة إنه لم تفد إلى بلدتهم فرقة كبيرة مثلها حتى ذلك الحين. نصبت الفرقة خيمة كبيرة في الساحة الواسعة بين المدرسة والجامع، وفعلاً كان حجم الخيمة يدل على أنها فرقة كبيرة جداً. إذ كانت بحجم خيام السيرك الأوروبية.

ذهبت في اليوم الأول لنصب الخيمة إلى مقهى اسحق الترزي أولاً فبادرني قائلاً بمكر:

ـ إن كاظم طوبال يدبر أيضاً بعض الأمور، لكننا لم نفهم بعد ماهي.

خرجت من هناك وذهبت إلى مقهى كاظم طوبال الذي غمزته متخابثاً وقلت:

ـ ماذا يجري يا كاظم أفندي، هل تسير الأمور على ما يرام؟

غمزني هو الآخر وقال:

ـ انتظر ياسيدي، انتظر.. غداً تعرف كل شيء.

اهتزت البلدة في ذلك اليوم، إذ انتشر رياضيو الفرقة ولاعبو الجمباز والبلياتشوات في أزقة البلدة ينادون ويعلنون ويدعون إلى عرضهم الكبير الذي

سيعرضونه تلك الليلة. وفيما كان هؤلاء بأرجلهم الخشبية العالية، ووجوههم المصبوغة بالأصبغة، وقباتهم الطنانة، وتنانيرهم الرنانة، وقبعاتهم الملونة ينادون ويصرخون، كانت أوركسترا الفرقة الموسيقية الخماسية تصدح بالموسيقى في أرجاء البلدة. وقد رفعت الأعلام الملونة على الأعمدة، ولصقت الاعلانات على الجدران، وعلقت اللافتات في الأزقة.

وعند المساء رحت أتجول بالقرب من الخيمة حيث كانت الفرقة الموسيقية تعزف عند باب الخيمة، وبقربها وقف الحاوي يخرج أرانب من قبعته. وحول الكوة التي على يمين باب الدخول نشرت ملابس نسائية داخلية ملونة. فالكلاسين النسائية البنفسجية، والقمصان الداخلية الزرقاء، وحمالات الصدر الحريرية الصفراء كانت تنتفخ وتتطاير في الهواء إلى جانب الأعلام الملونة. وقد غصت الساحة بالناس وهم يتدافعون نحو الكوة للحصول على تذاكر الدخول.

كل شيء كان ماشي الحال، لكن الملابس النسائية الداخلية المتطايرة في الهواء على المكشوف لم تعجبني. فذهبت وأخبرت قائد الشرطة الذي أجابني قائلاً:

ـ لدينا علم بذلك !

ـ لماذا لا ترفعونها؟ فالاعلان بملابس الفنانات الداخلية شيء معيب.

ـ لا أريد التدخل بالمسائل الحزبية.

ـ وهل ملابس الفنانات الداخلية مسألة حزبية أيضاً؟

ـ ذهبت، وقلت << ارفعوا هذه. >> فأوجدوا مبرراً مقنعاً.

ـ وماهو مبررهم؟

ـ نظراً لكونهم متجولين دائماً فإن نساءهم يغسلن ملابسهن وينشرنها حيثما حلت الفرقة ونصبت خيمتها.

ـ في الحقيقة لا بأس.. ولكن ألا تُغسل ملابس الرجال أيضاً؟

ـ كانت هناك كلاسين وسراويل رجالية طويلة الساقين مرقعة منشورة أيضاً. ولقد كانت الكلاسين الرجالية والكلاسين النسائية منشورة بمهارة بحيث كان انتفاخها وتطايرها والتفافها ببعض منظراً فاضحاً جداً، فأمرتهم قائلاً: << ارفعوا هذه الحاجيات الرجالية على الأقل >> . وإذ بهم راضون بذلك منذ البارحة..

وصلت أخبار الكلاسين النسائية المنشورة عند باب خيمة الفرقة الاستعراضية إلى القرى المحيطة، وراح الناس يتوافدون مسرعين زرافات زرافات.. وصاروا يتجولون حول الكلاسين الملونة والقمصان الداخلية، وما كان أحد ينظر إلى الحاوي وإلى الأرانب التي يخرجها من قبعته ولو أخرج لكل واحد منهم زوجاً من الثيران من قبعته وأهداه إياهما فلن يلتفت إليه أحد.

دخلت في الازدحام لأحصل على تذكرة دخول، ووقفت في الصف وبعد طول انتظار وتزاحم وتدافع جاء دوري. كانت قاطعة التذاكر امرأة صبغت شعرها بلون أشقر ذهبي. كان سعر أرخص تذكرة خمس ليرات، فمددت لها يدي

بخمس ليرات، استدارت المرأة إلى الخلف ورفعت الستارة التي خلفها ونظرتْ، فلمحتُ وجه المرافق عمر خلف الستارة. وكان المرافق عمر هذا من أخلص رجال كاظم طوبال. سحبت المرأة المصبوغة الشعر رأسها من تحت الستارة المزهرة التي خلفها والتفتت إلي وقالت:

ـ ليست لدينا أماكن!

ـ وماذا سنفعل؟

ـ ماذا ستفعل، اذهب واستبدل الهواء، ولا تدع عيني تقع عليك لفترة من الزمن!

هكذا مازحتني قاطعة التذاكر، فأجبتها:

ـ تكلمي بأدب!.. ياسيدة!

ـ ايه.. لا مكان لدينا، تعال غداً.

انسحبت، لكن قاطعة التذاكر أعطت الشخص الذي تلاني تذكرتين. تضايقت فذهبت من فوري إلى كاظم طوبال.

ـ ماهذه الفرقة التي أحضرتموها يا كاظم أفندي.. إن في الكوة امرأة تعطي التذاكر لمن تشاء وتمنعها عمن تشاء. فأجابني كاظم طوبال:

ـ لا تحدث جلبة ياسيدي. حسن أنهم لم يعطوك تذكرة دخول، غداً تعرف حقيقة الأمر.

كذلك أعطوا بعض الزملاء الموظفين تذاكر دخول، وقالوا لبعضهم الآخر << لاتوجد لدينا أماكن، تعالوا غداً! >>. لم أستطع حضور العرض تلك الليلة فنمت باكراً. وكان بيتي قريباً من موقع الخيمة فسمعت أصوات الطبول والزمور والأبواق فترة ثم غفوت بعدها. وإني وإن كنت قد استيقظت عدة مرات على صرخات حادة عند منتصف الليل إلا أنني لم أصحُ من غفوتي وأتبين تلك الصرخات.

كان اليوم التالي يوم أحد، خرجت إلى الشارع وإذ بالخيمة الضخمة منهارة تماماً وممددة على الأرض مثل جثة وحش مرعب، وقد تجعد قماشها وانكمش وتغضن مثل جلد امرأة عجوز، فيما بقي عمود الخيمة الأوسط الضخم منتصباً لم ينهدم، وقد علقت ساق على أعلى قمة العمود، ساق اصطناعية، لا بد أنها الساق الاصطناعية التي ركّبها كاظم طوبال مؤخراً. لم أجد أحداً لأسأله << ماهذا؟ >> وكأن البلدة قد أخليت فليس هناك سوى بضعة أطفال يلعبون. مررت على مقهى اسحق الترزي التي في طريقي أولاً، وهي مقهى قليلة الرواد منذ افتتاحها. ومثل كل مرة كان فيها بعض المعارضين الذين لا تخاف عيونهم، وكانوا جميعاً يتضاحكون ويتمازحون، أسألهم فلا يجيب أحدهم بشيء، أسأل اسحق الترزي، هو الآخر يقهقه بالضحك. كاد الفضول يقتلني، شربت شاياً وخرجت، إلى مقهى كاظم طوبال مباشرة.. لم يكن في المقهى التي تعج وتزدحم بالرواد دوماً سوى ثلاثة أشخاص في ذلك اليوم. ولأن وجوه الجميع وعيونهم

كانت معصوبة ومربوطة بالأربطة فإني لم أعرفهم. اقتربت من أحدهم وأمعنت النظر فيه وإذ به المرافق عمر. فداعبته قائلاً:

ـ معافى يا عمر آغا ماهذا؟ لا تكن قد أكلت علقة من زوجتك.

ـ ليتني اكلت علقة من زوجتي ياسيدي، وهل حالتي تشبه حالة من أكل علقة من زوجته؟ لم يبق في جسمي مكان سليم.

ـ وأين كاظم أفندي؟

ـ هل أدري. ليته يبتلي بكسر ساقه السليمة إنه يبحث عن ساقه الاصطناعية.

ـ طيب ماذا حدث يا عمر آغا؟

ـ وماذا سيحدث أكثر من هذا ياسيدي، لقد كسرنا جميعاً، فأسعف بعضنا إلى المشفى، وبعضنا الآخر يئن في البيت. ولم يسلم منا جميعاً سوانا نحن الذين ترانا، وأنا في ظهري جرح كبير مفتوح. لقد تكسرت عظامي كلها.

ـ هل حدث هذا بسبب الراقصات؟

ـ لا ياروحي إنها مسألة سياسية.

ـ كيف مسألة سياسية يا عمر آغا؟

ـ لا تسل ياسيدي، وكأننا دخلنا حرباً.

ـ هات أفهمني..

ـ أنت لا تبوح بالسر، آه ياسيدي، إنها مسألة سياسية ويجب أن لايسمع المعارضون، اسمع كيف حدث الأمر ياسيدي، لقد صارت قدرتنا على مواجهة المعارضة في هذه البلدة تضعف يوماً إثر يوم، فأرسلنا إلى القيادة المركزية لحزبنا نخبرهم << إذا استمرت الحال هكذا فالأمور ستسوء، أنجدونا بسرعة >>. حضر المفتش وقال << افعلوا كذا وكذا >> فقلنا << لن تُكسر عين المعارضة بفعلنا كذا وكذا>>. فقال << اذن افعلوا كيت وكيت >> فقلنا << لن تُهرس رأس المعارضة بفعلنا كيت وكيت >> فقال: << إذن يجب أن يُضرب هؤلاء ضرباً تُهرس به رؤوسهم هرساً تاماً>>. فقلنا جميعاً << يسلم فمك، فليست هناك طريقة أخرى، يجب أن نضرب هؤلاء ضرباً مبرحاً، لكن يجب أن يكون ضرباً قانونياً لكي لا نكون مسؤولين في النهاية >> فقد نقع فجأة بين يدي قاضٍ أو محامٍ سياسي معارض هضم القانون هضماً، فيحكم علينا للاشيء بأننا ضربنا معارضين. أجمعنا رأينا على ذلك، وقال المفتش: << هذا سهل، بإمكاننا إيجاد طريقة قانونية >>. فأعضاء فرقة شَنْسَسْ الاستعراضية من حزبنا، وسوف يحضر هؤلاء وينصبون خيمتهم هنا، وفي منتصف الاستعراض تماماً يقوم أنصارنا بقطع حبال الخيمة وإسقاطها على الأرض، فيختلط الحابل بالنابل، عندها وفي ظلمة الخيمة المتهدمة نشبع المعارضين ضرباً ونمددهم على الأرض كاللباد، ولن يُعرف مَنْ ضرب مَنْ تحت ظلام الخيمة الكبيرة المتهدمة. هل هذا جيد؟

ـ جيد جداً..

ـ وعلى هذا الأساس ياسيدي، قدمت فرقة شنسس، ونصبت خيمتها الكبيرة في الساحة، لكن صادفتنا مشكلة، وهي أنه سيكون بين الجموع موظفون أمثالكم، كما سيكون هناك محايدون. ففكرنا بحيلة نجنبهم بها الضرب، واتفقنا إن جاء محايد وطلب تذكرة أن يُقال له ليست لدينا أماكن.واختفيت أنا خلف الستارة التي خلف قاطعة التذاكر، وصرت إذا جاء أحد وطلب تذكرة أمسَّ رجل الفتاة بيدي مسَّاً خفيفاً، فإن أنزلتُ صفعة على رجلها تعرف بأن هذا يجب أن لايعطى تذكرة فتقول له << ليست لدينا أماكن >>، ولكن بعد فترة ما عادت الفتاة الشقراء تحس بالصفعات، فهل تلبدت مؤخرتها فماعادت تحس فعلاً بالصفعات، أم أن الصفعات كانت تعجبها، خطيئتها في رقبتها، أنا لا أعرف. لذلك صرت كلما جاء محايد يطلب تذكرة أهوي بكفي على مؤخرتها بقوة كمن يحرض ثوراً.

ـ أنا أيضاً قالت لي ليست لدينا أماكن.

ـ طبعاً تقول.. فعندما رأيتك من ثقب الستارة أعطيت الفتاة صفعة من خلف الستارة، فقالت ليس لدي مكان. خلاصة القول ياسيدي، نحن ملأنا الخيمة بالمعارضين، وقبل بداية الاستعراض ذهب علاَّمتنا كاظم طوبال إلى اسحق الترزي المعارض وقال له: << ماهذا؟ لماذا نحن واقعون ببعض يارفيق؟ ألسنا جميعاً أبناء وطن واحد؟ لنترك أمور السياسة جانباً، ولنلتفت ونتفرج على الاستعراض. لقد زهت البلدة فلنأكل ولنشرب يارفاق>>. هل هذا جيد؟

ـ جيد..

ـ تصالحنا المؤيدون والمعارضون صلحاً خادعاً وتظاهرنا بالصداقـة، وجمعنـا ليلتـها جميـع المعـارضين الذيـن سـنضربهم، وقدّمنـا لهـم العـرق والمـازوات مـن مخصصات الحزب. وكان تقديمنا الخمر لهم بدافـع مـن خوفنـا، فلربمـا انتبـهوا وأحسـوا بـالمكيدة فجـأة عندمـا تقـع الخيمـة فوقـهم، عندهـا يحملـون عصيـهم ويهجمون علينا، إذن لابد أن نسكرهم سكراً شديداً ثم ننـهال عليـهم بـالضرب.. هل هذا جيد؟

ـ جيد..

ـ شرب المعـارضون وشـربوا، ومـا عـاد أحدهـم قـادراً علـى الوقـوف علـى قدميه، وكان أعرجنا كاظم طوبـال قـد نبـهنا قـائلاً << حـذار أن يشـرب أعضـاء حزبنا، تظاهروا بالشرب، أريقوا العرق على ملابسكم وعلـى رؤوسـكم >>. ولأنـه مضاد للحرارة غسلت رأسي بزجاجَتَي عرق. وهكذا تظاهرنا بالسـكر. وصـار كـل عضو من حزب يناجي العضو من الحزب الآخر ويقول له << آه يا صديقي ألسـنا جميعاً أبناء هذا التراب الواحد ؟ >> ويلتفان ببعض ويتعانقان، وكـان هنـاك مـن يبكي، وهناك من ينتحب. وهكذا بالعناق وبكلمة << كلنا اخوة >> جمعنـا هـؤلاء المعارضين داخل الخيمة. وكان المفتش قد أوصانا قائلاً << اضربوهـم ولكـن حـذار من إراقة الدماء، اعفسوهم واهرسوهم إن أردتم ولكـن بـدون دمـاء، فـإن أريـق دم فإني لا أستطيع إنقـاذكم! >> لذلـك أمرنـا كـاظم طوبـال قـائلاً << ممنـوع حمـل المسدسات والسكاكين. >> وهكذا لم يحمل أحد منا مسدساً أو سكيناً. لكن بعضنا أخفى في وسطه سوطاً من عروق الثور، وبعضنـا أخفـى حبـلاً مجـدولاً ذا دبـوس

مدبب، أو عصاً مسننة، أو حزاماً جلدياً مزيّتا، أو حزاماً جلدياً بأطراف حديدية، وكان لدي سوط من عروق الثور ورثته عن أبي، يعتبر دبوس رستم زال أوغلو لا شيء بجانبه، دسسته في ساق حذائي الطويل، ثم أخذنا مواقعنا داخل الخيمة وجلسنا في أماكن محددة، وحددنا مسبقاً الذين سنضربهم، وسوف تقطع حبال الخيمة فور إعطاء كاظم طوبال الإشارة، هل هذا جيد؟

- جيد..

- إلى هنا جيد، لكن شيئاً آخر كان في نيتي. أنت تعرف نوري الأقرع وحيدر شببك من حزبنا، ليس هناك على وجه الدنيا أسفل من هذين الاثنين، كذلك هناك من حزبنا سليمان صاري وقد استدان مني خمس ليرات منذ سنتين، وأنا أروح وأجيء إليه على مدى السنتين ولا يفيني إياها. وهناك سعيد سيفري الذي تعرفه، وبيني وبينه خصومة، وإن قلتَ أمين البقال فهو أيضاً من حزبنا لكنه عدوي اللدود، كذلك أليس المختار عزيز هناك أيضاً؟ فكرت في نفسي وقلت من سيعرف مَنْ عندما تقع الخيمة فوقنا ويدخل الناس ببعضهم في الظلام؟ وماذا يعني أنهم من حزبنا؟.. سوف أبدأ بهؤلاء أولاً، وسوف يظنون أن المعارضين ضربوهم. فسوطي لا يحمل خاتمي على أية حال.. وهو لن يطبع توقيعي على جباههم إن أنزلته عليهم. جعلت هؤلاء نصب عيني، ولسوف أنهي عملي معهم بلمحة واحدة، ضربة لهذا وضربة لذاك.. وسأبدأ بالمختار أولاً. عيني على هؤلاء، والأخرى على كاظم طوبال. وكانت فتاتان قد صعدتا على خشبة المسرح وبدأتا بالرقص والصراخ، وقد انكشفت عوراتهما كلها، ولم يكن هناك سوى شبر

من الغربول وحفنــة مـن الخـرز تسـتر موضـع الأنوثـة فيـهما.. الموسيقى تصـدح والمعارضون انتشوا وراحوا يصرخون << يعيش >> وإذا بكاظمنا يمــرر يـده اليمنـى على شاربيه، وكانت هذه إشارتنا. وفيما كان كاظم طوبــال يفتـل شـاربيه وقعـت الخيمة فوقنا فجأة وانطفأت الأضواء، فما كــان مـني إلا أن سـحبت سـوطي مـن ساق حذائي وصرخت يا الله وهجمت على المختار، وبما أنني كنت قـد حـددت أماكنهم مسبقاً فسوف أنهي عملي معهم في الظلام بغمضة عين. رفعت ســوطي في الهواء ولحظتها تماماً لمعت في عيني بروق، إذ هوت على رأســي عصـاً أحسسـت لشدتها أني سأموت فنطقت بالشهادتين، ولكني مع ذلك كنت أثناءها قد هويـت بسوطي على دماغ المختار. لكن المختار السافل عرفني في ذلك الظلام وكأن عينيـه كشافتان إذ قال << عرفتك أنت المرافق عمر! >> لم يكن المختار في حالـة يسـتطيع معها رؤيتي، فرفع دبوسه الثقيل وأهوى به قائلاً: هــي ذي رأس رضا يـارجي. كيف هذا؟ أليس رضا يارجي من حزبنا؟ تركت المختار، وقلـت يـا الله وهجمـت على نوري الأقرع، وكنت بضربة واحدة أطرح من أضربــه أرضـاً، وعندمـا تركـت نوري الأقرع واتجهت صوب حيدر شــببك، هـوت علـى ظـهري عصـا طرحتـني أرضاً فوراً. لكنني استطعت الإمساك بذراع من أهوى بالعصــا علـى ظـهري، ولـك أليس هذا عضو حزبنــا نـوري آغـا؟ << ولـك نـوري آغـا ألسـت مـن حزبنـا؟ >> فأجابني << اسكت أرجوك يا رفيق، فأنا ملتزم بالحزب بروحي، لكن يبــدو أنـي أخطأت في الظــلام >>. لكـني قلـت << ولـك هـل يجـوز الخطـأ يـا سـافل؟ لقـد أقعدتني! >> واستعنت بالله وهويت بالسوط على ما تحت رأسه، بحيث يمكنـك القول أن نوري آغا انقسم نصفين. ثم هويت بالسوط كذلك علــى سـعيد سيفري،

وإذ بعصا غليظة تهوي بقسوة على كتفي الأيسر هذا. مع نزول العصا على كتفي أمسكت بساق الرجل بيدي، لكن هذه الساق ساق مغايرة ياسيدي، إنها ليست طبيعية، إذ ترك الرجل ساقه وهرب. ياعالم ياهو أليست هذه الساق التي في يدي ساق كاظم طوبال الاصطناعية؟

الكل يصيح ويصرخ، والخيمة فوقنا، ولا أستطيع تحريك يدي، عظامي متكسرة، ولا مجال للخروج والنجاة من الخيمة، إذ لم نعثر في هذه الخيمة اللعينة التي وقعت فوقنا على أي ثقب نفر منه وننجو بأرواحنا، كذلك لم نستطع تمزيق الخيمة بسكين والخروج منها لأن المفتش أوصانا بعدم حمل واستعمال السكاكين. بقينا هكذا نئن ونصرخ، فأغمي علي ولا أعرف كيف أخرجوني. هكذا ياسيدي. والشكر لله أننا وصلنا إلى هنا، أما الآخرون فلا نعرف هل ماتوا أم مازالوا أحياء..

ـ وماذا حل بالمعارضين؟

ـ ماذا سيحل بهم؟ لا شيء.. ولو سال الدم من أنف أحدهم لما حملت هماً، لكننا لم نمس شعرة من أي منهم، فنحن جميعاً نحمل عقيدة سرية. فبالرغم من كوننا من حزب واحد إلا أنه ثبت أننا أعداءٌ بعضنا لبعض، وليقيننا بأن لا أحد سيعرف ويكتشف دخلنا ببعضنا بعضاً. ماذا تقول لم نمس شعرة من معارض واحد لانشغالنا بضرب بعض. أرأيت كاظم طوبال هذا! إنه السافل الذي هوى بالعصا على ظهري وأوقعني مغمياً علي..

في هذه الأثناء حضر كاظم طوبال مستنداً إلى عكازه وقال:

ـ كنت أعرف أن هذا سيحدث، كان ذلك واضحاً من ازدحام مقهانا.

ثم جلس على الأريكة وسأل:

ـ هل رأى أحدكم ساقي الأخرى يارفاق؟

ممنون جداً بمعرفتك ٢

لا يمكن يا أخي. انظروا لماذا لا يمكن، فلأوضح ذلك. عفواً، ما اسم معاليكم ياسيدي؟ علوي بيك.. تشرفنا ياسيدي، أنا اسمي شادي. صرت ممنوناً جداً. نعم.. ماذا كنت أقول؟ لا يمكن.. لايمكن أبداً. لأنه ياسيدي، قبل كل شيء، ليست لدينا خطط في المعارف. أنا أعرف ذلك جيداً فقد خدمت فترة طويلة في المعارف. وبدون خطة وبدون برنامج لايمكن تحقيق شيء ياسيدي. عفواً سيدي أيمكنني معرفة اسم معاليكم؟ علوي بيك.. جميل جداً صرت ممنوناً. وأنا اسمي شادي. لأنه ياسيدي، قبل كل شيء ليس لدينا نظام تدريسي. لذلك ياسيدي يأتي أحدهم فيرفع عدد صفوف الدراسة الثانوية إلى اثني عشر صفاً، ويأتي آخر فينزلها إلى أحد

عشر صفاً. يأتي أحدهم ويقرر خمسة امتحانات في السنة. ثم يـأتي غـيره فيقـول << يكفـي امتحـان واحـد في العـام >>.أحدهـم يقـول <<لاترسـبوا أبنـاء الوطـن في صفوفهم، فهذا حرام >> وآخر يقول << نحن بحاجة إلى رجـال، رجـال.. دققـوا جيداً. يكفي تهيئة رجل واحد في السنة، بل إن ذلك كثير>>. يعـني ياسـيدي.. عفواً، ما اسمكم ياسيدي؟ علوي بيـك.. تشـرفنا ياسـيدي. وأنـا اسمـي شـادي.. فلأوضح كيف أنه ليست لدينا خطة معارف. أنا قبـل عشـرين.. نعـم قبـل سـت وعشرين سنة، ولكي لا أكذب، ربما سبع وعشرين، ربما أكثر.. على كل حـال، ذلـك ليـس مـهماً. دخلـت غمـار الحيـاة كمعلـم. كنـت حينـها شـاباً في الرابعـة والعشرين أو الخامسة والعشرين، ولكي لا أكذب والله ربما في السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين. نعم، رميت نفسي في غمار الحياة كمعلم. عفواً، نسـيت أن أسأل عن اسمكم. علوي بيك.. نعم.. وأنا اسمي شادي، ماذا كنت أقـول؟ نعـم، نحن ليس لدينا نظام معارفي، أقول ذلـك بكـل مسؤولية لأنـي خدمـت لسـنوات طويلة في المعارف. عيَّنوني يومها في قيسري. والله كان ذلك في المـاضي، ولكـي لا يكون كذباً، ربما كانت أدرنة. على كل حال المكـان ليـس مـهماً. صرت معلمـاً. ومهما كان فأنا شاب، وعاشـق لـمهنتي لأقصـى حـد. ومـاذا يفعـل المعلـم، معلـم مدرسة ابتدائية؟ إنه يهيئ الأطفال. وأنا كنت أهيئهم. كنت يومها معلماً للصـف الخامس، ولكي لا أكون قد كذبت، ربما للصف الأول.. ذلك ليس مـهماً. سمعنـا يوماً فجأة بأن مفتشاً سيزور المدرسة. وقع المعلمون الآخرون في حيرة وارتباك، أما أنا فبالعكس صرت ممنوناً جداً، إذ كنت قد هيأت الطلاب تهيئة جيدة، فليـأت المفتش وليشاهد. أيمكن أن أسأل عـن اسمكـم ياسـيدي.. هـل قلتـم علـوي؟ وأنـا

اسمي شادي.. ثم حضر هذا المفتش ياسيدي ودخل صفي، وبوجه عابس سألني متعالياً:

- أين الطيور؟

- أي طيور ياسيدي؟

- ماذا يعني أي طيور؟ ألم يصلكم التعميم؟

أجاب المدير الواقف خلف المفتش قائلاً:

- وصل التعميم ياسيدي، ولكن..

- ولكن ماذا؟

- إن منطقتنا باردة، لذلك من الصعب إيجاد الطيور.

- هذا لا يجوز، يجب أن يقرأ التعميم، وأن يقرأ تقريري المرفق به أيضاً، وأن يتم التصرف وفق ما جاء فيهما. يجب تحضير وتهيئة الأولاد للحياة وهم على مقاعد الدراسة. أنتم اشرحوا لهم من الكتب ما تشاؤون، غير مجد. يجب أن يربي الطلاب الدجاج والإوز والعصافير، ويروا كيف تتكاثر الطيور، وكيف تبيض، وماهي البيضة. مفهوم؟ في زيارتي القادمة يجب أن أرى كافة أنواع الدواجن والطيور.

غادر المفتش، وقد انزعجت جداً، فأن أعمل وأجتهد وأتعب ثم يأتي المتفش ولا يعجبه ما بذلت من جهد. بحثت فوراً عن التعميم والتقرير وقرأتهما.

وفهمت الموضوع. لم تعجب وكالة المعارف يومـها بنظـام التدريـس لدينـا، وقـالوا بوجوب تغيير هذا النظام فأرسلوا المفتش الذي زارنا، إلى فرنسا لمدة شهر للاطلاع على نظام التدريس الفرنسي، فعمل تقريــراً عـن مشـاهداته في المـدارس الفرنسـية التي زارها وقدمه للوزارة، الـتي أرفقـت هـذا التقريـر بتعميـم عممتـه علـى كافـة المدارس. ويبدو أنه كان هناك في إحدى المدارس الفرنسية التي زارها المفتش معلـم يهوى الطيور، ويعتقد بأن الطلاب يتعلمون أكثر برؤية الطيور والدواجن.

سارعت فوراً وطلبت من كل طفل أن يجلب دجاجة أو ديكـاً، أو دجاجـة هنديـة، أو بطـة، أو إوزة، أو غـير ذلـك مـن الدواجـن، وبنينـا لهـا المداجـن والحظائر. امتلأت غرفـة الصـف بالأقفـاص الـتي تحـوي كـل أنـواع الطيـور مـن عصافير وبلابل وكناريات. واستهوت المسألة الأولاد فصـاروا يجلبـون كـل صبـاح غراباً أو نورساً أو عصفوراً دورياً أو حجلاً. أما الطيور الـتي لا تعيـش في منطقتنـا فقد جلبناها من المناطق المجاورة. وتطوع أحـد الأغنيـاء وهـو والـد لأحـد تلاميـذ المدرسة فجلب لنا من استانبول عشرين طائراً مـن طيـور الحـب. فغـار منـه والـد تلميذ آخر وأحضر لنا ببغاء من أنقره، وهنـاك مـن جلـب طيـور الكنـاري أيضـاً. ماعادت غرفة الصف تتسع للأقفاص فوزَّعنا منها على الممـرات والصـالات، كمـا امتلأت الحديقة بالمداجن وقعدت الدجاجات والدجاجات الهندية على بيوضها، وعملنا أحواضاً للبط والإوز.

وفيما نحن كذلك ياسيدي.. عفواً ياسيدي، أرجو أن لا يكون ذلك عيباً مني، اسم معاليكم؟ علوي بيك.. تشرفنا ياسيدي. أنا شادي.. بعدها ياسيدي سمعنا بأن المفتش قادم. فليأت، فنحن جاهزون تماماً.

طلع علينا المفتش في أحد الأيام، والديكة تصيح في حديقتنا، والديوك الهندية تنتفخ، والإوزات تصفق بأجنحتها، كل شيء جيد.. دخل المفتش صفنا والكناريات تغرد، والغربان تنعق، والبلابل تشدو، كانت مقطوعة موسيقية تصدح في غرفة الصف.

صاح المفتش:

ـ ماهذا؟

فسألته:

ـ أيها ياسيدي؟

ـ هذه مزرعة!

ـ المزرعة فوق ياسيدي، هذا صف..

احتد المفتش، إذ قلبنا المدرسة إلى مزرعة لتربية الدواجن وقلبنا الصف إلى مكان لتربية الطيور، وصاح:

ـ ألم تقرؤوا تقريري؟

قرأنا سوية تقريره الوارد من الـوزارة، فوكيـل المعارف الجديـد لم يعجبـه نظام التدريس لدينا وأراد تغييره، فأرسـلوا هـذا المفتـش إلى ألمانيـا للاطـلاع علـى نظام التدريس الألمـاني.. وبعـد عشـرين يومـاً قـدم تقريـراً عمـا شـاهده في النظـام الألماني.

صاح المفتش:

ـ أزيحوا فوراً هذه الحيوانات المجنحة، أهـذه مدرسـة أم مزرعـة؟ يجـب تربية الطلاب وتنشئتهم تنشئة مطابقة للحياة العملية، أيـن قاعـة النجـارة؟ أيـن قاعة الحدادة؟ أيـن المشـغل؟ يجـب أن أرى ذلـك كلـه جـاهزاً تمامـاً في زيـارتي القادمة.

استأت كثيراً، فأن أتعب وأجهد هكذا ثم أن لا أوفق..

وزعنـا الطيـور والدواجـن فـوراً. وطلبنـا مـن الطـلاب أن يعملـوا ويركِّبـوا منصات، وأن يشتروا شواكيش ومساحج وبراغٍ ومثاقب وغيرها من لـوازم النجـارة والحدادة.. وصار الصف مشغلاً في طـرف منـه ورشـة حـدادة وفي الطـرف الآخـر ورشة الصب.. والطلبة منهم مَنْ يسوي الخشب ومنهم من يدق المسـامير، ومنـهم من يصب قوالب. وفي أوج فاعليتنا.. عفواً ياسيدي هـل تتلطفـون علـي بـاسمكم؟ علوي بيك.. صرت ممنوناً جداً ياسيدي. وأنا اسمي شادي.. وبعد ذلك ياسـيدي نعم.. حضر مفتش إلى المدرسة وراح يصيح:

ـ ماهذا؟ أهذه مدرسة أم مصنع؟

وهذا المفتش أمضى شهراً في إيطاليا بقصد الاطلاع على نظام التدريس الايطالي. وحين عودته قدم تقريره.

ـ أين المجموعات؟ أين مجموعات الطلاب؟..

فلكل طالب في المدارس التي زارها في ايطاليا هواية جمع مجموعات، مجموعات طوابع، مجموعات بطاقات إعلام، مجموعات رياش طيور، مجموعات فراشات، مجموعات علب كبريت، مجموعات أوراق نباتات..

ألقى علينا المفتش محاضرة طويلة في فوائد جمع المجموعات، ثم أردف:

ـ هيا ارفعوا هذه المنصات فوراً، وفي تفتيشي القادم يجب أن أرى مجموعة كل طالب جاهزة وكاملة..

بدأنا بجمع المجموعات. وكان الفصل شتاء، لذلك لم نستطع جمع مجموعات من الفراشات، لكنا جمعنا المجموعات الأخرى، مجموعات ديدان، مجموعات حشرات، مجموعات أحجار، مجموعات نباتات، مجموعات طوابع.. امتلأت جدران المدرسة بلوحات المجموعات، وفيما الأمور كذلك ياسيدي.. لا تؤاخذوني، نسيت تقديم نفسي لمعاليكم.. أنا شادي.. علوي بيك، أليس كذلك؟ تشرفنا ياسيدي.. وبعد ذلك.. ماذا كنت أقول؟ نعم.. جاءنا مفتش زار أمريكا لمدة شهر ونصف للاطلاع على نظام التدريس الأمريكي. وهذا رأى في المدرسة التي زارها هناك أحواضاً زجاجية يربي فيها الطلاب الأسماك والسرطانات وما شابهها.

لا داعي لإطالة الكلام ياسيدي.. عفواً، اسمكم ياسيدي العزيز؟ علوي بيك، أنا شادي، ونحن لا أسماك لدينا في المنطقة التي تقع فيها مدرستنا. لذلك صرنا نربي<< العلّيق >> والضفادع في الأحواض الزجاجية. في تلك الأثناء طلب رجل الاقتران بأختي، أخبروني ذلك برسالة، فأنا رئيس العائلة بسبب وفاة والدي. تقصيت معلومات عن الرجل وإذ به مستشار في وزارة المعارف. فأرسلت إليه من يخبره بأني أعطيه أختي إن أرسلني في مهمة اطلاعية، وإلا فإن هذا الأمر لن يتم. فأجاب الرجل << ممكن، وإلى أين يريد أن يذهب؟ >> فقلت إلى سويسرا. وسبب طلبي سويسرا هو أنني لا أعرف لغة أجنبية، ومعلوم لدى معاليكم أنهم يتكلمون لغات تختلف من منطقة إلى منطقة في سويسرا، فإن ذهبت إلى منطقة يتكلمون فيها الفرنسية سأقول << أنا أتكلم الألمانية >> وإذا ذهبت إلى منطقة يتكلمون فيها الألمانية سأقول << أنا أتكلم الايطالية >>. أرسلوني إلى سويسرا لمدة خمسة عشر يوماً للاطلاع على نظام التدريس فيها، وحين عودتي عينوني مفتشاً. إلى هنا جيد، جميل. لكنهم تمسكوا بضرورة أن أكتب تقريراً وأقدمه. ماذا أكتب؟ صرت أماطل، اليوم، وغداً. لكنهم مصرون على تقديم التقرير. فجلست يوماً وأعددت تقريراً جيداً، بينت فيه أن نظام التدريس السائد لدينا حتى اليوم نظام خاطئ، وبحسب ما اطلعت عليه في النظام السويسري يجب على كل طالب أن يقتني زلاجة، فالتزلج ضروري للطالب.

ثم ياسيدي أسهبت في شرح فوائد التزلج في التدريس وفي المعارف. وعلى إثر هذا التقرير ياسيدي فصلوني من التعليم وأنهوا خدمتي. ولم أفهم أبداً، هل

إن تربيـة الدجـاج، وزراعـة الجـزر والملفـوف وتربيـة<< العليـق >> والضفـادع في الأحواض الزجاجيـة أمـور مفيـدة للطـلاب، بينمـا الـتزلج أمـر سـيئ؟ أمـا ذلـك المستشار فقد عدل عن الاقـتران بـأختي. وحسـناً جـداً فعـل. إذ نقلـوه مـن وزارة المعارف وعينوه مديراً لمصلحـة الجـر في الخطـوط الحديديـة، وفيمـا كـان الرجـل يحاول معرفة آلية عمل القاطرات، وقع بين قطارين ودهس.

يعني ما أردت قوله ياسيدي، نحن ليس لدينا أي نظـام معـارفي. أنـا الآن أربي الأبقار، إني أعمل في تربية الأبقار وتأمين الحليب ياسيدي، لأنني ياسيدي عندما ذهبت إلى سويسرا اطلعت على كيفية تربية الأبقـار هنـاك. فمعلـوم لديكـم ياسيدي أن أبقار سويسـرا مشـهورة. وأن سويسـرا تقدمـت جـداً في مجـال تربيـة الأبقار وتأمين الحليب وصناعة الأجبان. عفواً، أنـا لم أقـدم لكـم نفسـي. اسمـي شادي.. واسمكم؟ علوي بيك.. صرت ممنوناً جداً ياسيدي.. هذا شرف لي.

انقلاب

٣

تربع الخال رجب على الأريكة، وراح يحكي حكايته التي سمعتها عشرين مرة على الأقل خلال عشرين يوماً، وكان أثناء ذلك يسوي لحيته بإحدى يديه، فيما كان بيده الثانية يفرك أصابع قدمه الظاهرة من ثقب مفتوح في رأس جوربه الصوفي.

وكان رواد المقهى يمازحونني مزاحاً خفيفاً بين الفينة والأخرى.

قدمت إلى هذه القرية معلماً قبل عشرين يوماً، قدمت وإذ بالقرية لا مدرسة فيها، ثم اتضحت المسألة. لقد أرسلوني إلى هنا خطأ، كانوا سيرسلونني إلى قرية فيها مدرسة. والآن فإن تلك القرية التي فيها مدرسة تنتظر معلماً. وهذه القرية التي فيها معلم تنتظر مدرسة. وأهل القرية يظنون أني أنا الذي افتعلت هذا الخطأ

ويمازحونني مزاحاً خفيفاً لأنـي جئـت معلمـاً إلى قريـة لا مدرسـة فيـها. وكنـت أتظاهر بعدم فهم مقصدهم، وكان مظهري هذا يسرهم أكثر. أعطوني غرفة ملاصقة لجامع القرية الذي تهدمت أطراف جداره المبـني مـن اللـبن. كنـت أدخـل هـذه الغرفة من النوم إلى النوم، أما بقية الوقت فكنت أقضيه في مقهى القرية بجدرانها السوداء الفاحمة التي تراكمت عليها طبقات الدخان. ومـا كنـت أستطيع العـودة لأن الطرقات كانت غير سالكة بفعل تراكـم الثلـوج. وسـوف يحـدث مـا يحـدث عندما تصبح الطرقات سالكة.

كان هؤلاء القرويون مهووسين بـالكلام الكبـير الضخـم، فـهم إمـا يـرددون حِكَماً وأمثالاً قديمة، أو يتكلمون كأنهم ينطقون حِكَماً أو أمثـالاً. حكمـة مـن هـذا وحكمـة مـن ذاك. كـانوا يتكلمـون بـدون توقـف وكـأن في المقـهى سـباقاً للحكـم والأمثال.

الخال رجب لا يفتأ يسوي لحيته بإحدى يديه، ويفرك أصابع قدميه بيده الثانية، ويروي بعذوبة كيف صارع الوحش ـ يسمي الذئب وحشاً ـ الذي ظهر له بينما كان يرعى الغنم في شبابه.

فُتح باب المقهى. ومن كثرة الثلج الذي يغطيه لم يُعرف هذا الداخل الـذي ذرَّ غبار الثلج في المقهى. أغلق الباب، وعندما ضرب بقدميه على الأرض، وضرب بيديه ينفض الثلـج عـن نفسـه، عرفتـه أنـا أيضـاً، إنـه الشـاب الـذي يدعونـه <<حمودة الناشف >>. تلفت يمنة ويسرة كي تعتـاد عينـاه جـو المقـهى الضبـابي نصف المعتم، ثم سارع بالجلوس على كرسي من القش.

فبادره الخال رجب متسائلاً:

ـ ولك حمودة الناشف، هل يتبعك وحش من خلفك، مابك تتلفت هكذا؟

أجابه حمودة الناشف ذي اليدين والرجلين المرتبكتين:

ـ عمي، إن زوجتنا ذاهبة.

فعقب القهواتي كاظم آغا قائلاً:

ـ دعها تذهب ياولدي.

تضاحك من في المقهى، فقال حمودة الناشف وهو يضرب كفيه المعروقتين ببعضهما:

ـ أرجوك ياعمي، فالحالة سيئة، لقد بقيت المسكينة تئن وتتأوه، وجسمها يختلج حتى الصباح.

فقال رجب آغا:

ـ ياولد.. أحسن واحدة في جنس النساء تعيش ستة أشهر، لك نصيب في أن تقع على امرأة من هذا النوع.

ـ أرجوك ياعمي..

ـ انتظر لحظة ياولدي، لا تربك الناس. هناك ثلاثة أشياء في هذه الدنيا لا سبيل لها. هكذا كان يقول نقيبنا. العبد لا يمكن أن يصبح وجهه أبيضاً، واحد. الأجرودي لا يمكن أن تنبت له لحية، اثنان. الموت لا دواء له، ثلاثة.. مابك

تدور وتدور؟ إن لم يعد لها قسمة في ماء تشربه أو طعام تأكله، فمن يستطيع أن يجد لها دواء.

كنت أنتظر في هذه القرية فارغاً بلا شغل أو عمل، ولكي أحقق شيئاً ما قلت لحمودة الناشف:

ـ ما بها؟

وما أدراه ما بها؟ فقد سألته لمجرد المشاركة في الحديث، فأجاب القهواتي كاظم آغا:

ـ لا شيء ياروحي، وماذا سيكون بها، إنها حامل.

ـ ألا توجد قابلة في القرية؟ تساءلت.

ـ قابلة؟ القرية ملأى بالقابلات. كل عجوز في كل بيت قابلة.

ـ لو اتصلنا بالهاتف واستدعينا طبيباً من البلدة..

ـ هاتف؟ أرجوك يا << معلم >> ماذا تظن هذا المكان ؟ هذه قرية، وليست << دوائر رسمية >> ماذا يفعل الهاتف هنا؟...

ـ لو وضعتم المريضة في عربة وأخذتموها إلى البلدة...

ـ لو كانت الطرق سالكة، فلماذا تقيم ضيفاً هنا – يا معلِّم – ألا ترى هذا الثلج؟ ألا ترى هذه العاصفة الثلجية؟

وفيما كنا نتكلم خرج حموده الناشف وغادرنا. فقال الخال رجب:

ـ كنا قد أخذنا ابنة شعبان الأحول لابننا الكبير مراد، هل عرفت؟

أجاب كاظم آغا :

ـ أي ي ي، عرفنا طبعاً... كم مضى على ذلك يا خالي رجب؟

ـ لم يكن مراد قد ذهب الى العسكرية بعد... منذ حوالي خمس عشرة سنة، يومها طلب شعبان الأحول الطماع ثلاثمئة ليرة عدّاً باليد، ومخمسة ذهبية، وعجلين له مقابل إعطاء ابنته. فقلت له << ولك يا أحول هل ستعطينا أمها أيضاً لتطلب كل هذا المال؟ >> ، وابننا مسلوب العقل، يصر على أخذ ابنة شعبان الأحول. قلت له << ولك يا ولدي، خذ مئة ليرة واذهب إلى البلدة وسلِّ نفسك مع الفتيات اللعوبات ، فابنة شعبان الأحول لا تصلح امرأة لك >>. لكنه لم يسمع. والفتاة شيء كالعصفورة. لو كانت امرأة فتية لكنا أعطيناهم كل ما يطلبون. لكنها معلولة معدومة الصحة. سحبت شعبان الأحول جانباً وقلت له :<< يا رفيق، ابنتك لا تساوي كل هذا. لو كانت تساوي لما بان المال والمهر لعيني، لكنها لا تساوي! ابنتك هذه لا تستطيع الإنجاب... انتظر حتى تنجب.>>.

إثر ذلك قال شعبان الأحول " ليكن ابنك قرباناً لابنتي، ابنتي تساوي أكثر من هذا بكثير، لكنا حسبنا خاطركم وخرجت هذه الكلمة من فمنا ".

ـ<< ولك يا شعبان قد يظهر عدم لياقتها، وأنها لا تساوي المال الذي دفعناهُ >>.

ـ<< أمها كانت كذلك أيضاً، لو رأيتها وهي بنت لقلت إن ريحاً خفيفة تطيرها، لكن الزواج نفعها، مالك تنظر إلى ضآلة جسم ابنتنا؟ إنها مثل أمها. فلتتزوج وانظر إليها بعد ذلك، سوف تنتفخ مثل طبل>>.

بلا طول سيرة، لتحت، لفوق، اتفقنا معه على مئتي ليرة وعجل واحد. صار العرس، وتزوجا. وفيما كنا ننتظر انتفاخ البنت، راحت تذوي يوماً إثر يوم، كنا نتحرق أنا من طرف، وزوجتي من طرف آخر، فقد طارت مئتا ليرتنا والعجل. والبنت تذوب يوماً بعد يوم. والولد ما عاد يستطيع النظر في وجهنا من شدة خجله. وفي أحد الصباحات نظرنا وماذا رأينا، أليست البنت منفوخة؟ ولكنه انتفاخ غير عادي ولا مثيل له. فالفتاة منفوخة من بطنها. صار بطنها أشبه بعنبر المحصول. وراح شعبان الأحول يتباهى ويتشدَّق قائلاً أما قلت لكم أمها صارت كذلك أيضاً. وضحك وجه ابننا. وفي اليوم التالي نظرنا وإذ ببطن الفتاة صار طبلاً، وفي اليوم الثالث ما عادت الفتاة قادرة على حمل بطنها فتمددت على الفراش. استدعينا العجوز كوللي. كشفت على العروس وقالت << أيه يا ولدي، الفتاة حامل >>.

ولك يخرب بيتك، إن كانت هذه الفتاة حاملاً، فهل انتظرت ثلاث سنوات ثم حملت خلال ثلاثة أيام؟ قبل ثلاثة أيام لم يكن لها بطن، وهل تكوَّن هذا الولد الذي في بطنها هكذا فجأة؟

بدأت البنت بالأنين، وكلما ضربت بيدها على بطنها كان يقرع كالطبل، وصار الجيران يتضايقون من صراخها. والعجوز كوللي تنظر إلى بطن العروس المنفوخ وتؤكد بأنها << سوف تضع صباحاً أو مساء >>.

انتظرنا هكذا سنتين ونحن نقول صباحاً أو مساء، وبطنها يزداد انتفاخاً، والفتاة تصرخ وهي مستلقية على ظهرها، وكلما صرخت انتفخ بطنها، وكلما انتفخ بطنها تصرخ..

ـ ولك لا تصرخي ياخنزيرة! ألا ترين أنك كلما صرختِ دخل الهواء إلى جوفك فازداد بطنك انتفاخاً.

لكن الفتاة تصرخ، وبطنها ينتفخ بحيث ماعادت تستطيع المرور من بين الأبواب. ولو استمرت على انتفاخها هكذا فالبيت لن يسعها مع مرور الزمن.

لا أحد يفهم أكثر من العجوز كوللي، وكلما انتفخ بطن الفتاة تأتي العجوز وتقول:

ـ توأم..

وفي اليوم الثاني تأتي وتقول:

ـ هاتوا البشارة، خمسة توائم.

صار بطن عروسنا مثل خيمة تدريب، يحوي بداخله مجموعة أولاد. ولدت بقرتنا الغبراء مرتين، وعروسنا سوف تلد، فإن سألنا العجوز كوللي تقول

بأن التوائم الخمسة سيولدون صباحاً أو مساء. أي صباح وأي مساء؟ أقران الأولاد الذين في بطن عروسنا سيذهبون إلى العسكرية، وعروسنا، انتظر حتى تلد..

ياهو، هل تعرف أكثر من الحكومة؟ ماذا تفعل الحكومة عندما تريد تعيين موظف ما في مكان ما؟ ألا تعاين الموظف؟ فإن كان الرجل سليماً ربطته براتب شهري، وهو كله على بعضه موظف. نحن ليست لدينا هذه العادة. إنك تأخذ امرأة، ألا يجب معاينتها من قبل طبيب؟ كيف تدفع المهر وأنت مغمض العينين هكذا دون أن تعرف مدى قدرتها؟ لقد ذهبت أموالنا وذهب عجلنا. التقيت شعبان الأحول فأمسكت بخناقه وقلت << ولك ألم تجد من تحتال عليه غيري أنا أيها السافل؟ لو دفعت مالاً فوق ابنتك هذه لما أخذها أحد، ألم تخجل من أخذ أموالنا وخوزقتنا ؟ >>

قدم شعبان الأحول إلى البيت، ولما رأى بطن ابنته مثل جبل قال <<ماشاء الله، هذه سبقت أمها! >> فيما بطن الفتاة سيضرب بالسقف.

رضينا بكل شيء لولا صراخها..

ـ ولك أيها الأحول السافل، يامن تنظر إلى الخالق بطرف عينك! ما مصير أموالي؟

لو نبس شعبان الأحول بحرف لوضعته تحت قدمي وعفسته لكنه قال:

ـ لا تهتم أبداً ياخالي رجب، أمها أيضاً كانت هكذا، هؤلاء يبدأ بطنهن بالانتفاخ أولاً، ثم يتوزع الانتفاخ على كافة أنحاء جسمهن، وما أن يضعنَ

وليدهنَّ، حتى ينتصبن على أقدامهنَّ بقوة. وبعدها إلى العمل مباشرة. لا تهتم أبداً ياخالي رجب فمالك محفوظ دائماً.

سكتت العروس في إحدى الليالي. أماناً هل توزع انتفاخ بطنها على أنحاء جسمها ياترى؟ تراكضنا، وإذ بالانتفاخ في محله كما هو. فراحت زوجتي تندب:

ـ أماناً، هل ماتت ياترى؟ إن ماتت فقد ذهبت أموالنا وذهب عجلنا..

فصرخت في وجهها:

ـ ولك ماهذا الكلام.. إن ماتت العروس فما دخل أموالنا؟.. أموالنا محفوظة. هل دفعنا المال لهذه أم لأبيها؟ إن ماتت البنت فإن شعبان الأحول لم يمت معها..

نظرنا إلى العروس، وإذ بها تتنفس بعمق وبهدوء. هي ذي لم تمت.. واضح جداً أن انتفاخ بطنها سوف يتوزع على كافة أنحاء جسمها وسوف تنتصب على قدميها بقوة. وإن توزع هذا الانتفاخ وانتصبت عروسنا على رجليها فإن أفتى الفتيان لن يستطيع كسر ساعد عروسنا. عندها أرسلها إلى العمل في الجبال والسهول.

لكننا بمرور الزمن اعتدنا صراخ العروس، ولما انقطع صوتها جفا النوم عيوننا.

مرت ثلاثة أيام ساكنة هادئة، ولما كان اليوم الرابع بدأت بقرتنا الغبراء أولاً بالخوار، ثم تبعتها عروسنا بالصراخ. إذا قلنا أن بقرتنا الغبراء تخور فهي بقرة، ولكن ما بال عروسنا تصرخ؟.. ياعالم لقد أصاب بقرتنا الغبراء شيء!

فالحيوانة تخـور وتخـور ولا تسـتطيع الوضـع. لقـد انتفـخ بطـن المسـكينة وصـار كالجبل. استدعينا العجوز كوللي تفحصت البقرة وقالت:

ـ لقد مضى وقتها، والمسكينة لاتستطيع الولادة..

ـ لماذا؟

ـ إنها مريضة.. لقد انتقلت عدوى مرض العروس لهذه المسكينة أيضاً..

هي هي.. انظر لهذه الحالة ياكاظم آغـا، أخذنـا عروسـاً معلولـة، سـتنقل المرض بالعدوى للحيوانات كلها. نحن لم نجلب إلى بيتنـا عروسـاً، نحـن جلبنـا بمالنا علّة معدية، ستنعدم الحيوانات كلـها. فلتنطفـئ نـارك ياشـعبان الأحـول، أنت لم تعطنا بنتاً، بل أعطيتنا علة.. ولك من أين جاءت زوجتك بهذه البنت؟

البقرة تخور، والعروس تصرخ، لم يُسمع بمثل هذا المرض بعد. والاثنتان لا تستطيعان الـولادة. نحـن نسـينا العـروس، وتجمعنـا حـول البقـرة. يـاهو البقـرة الضخمة ستهلك وتذهب وهي تخور وتخـور وعيوننـا تنظـر. جـاء صـالح بـهلوان رحمه الله، نظر وقال:

ـ هذه البقرة لا تستطيع الولادة ولو انفلق الصخر.

ـ لماذا؟

ـ المسـكينة تجفـل مـن صـراخ العـروس، وطالمـا بقيـت تلـك تصـرخ فـهذه المسكينة لا تستطيع الولادة.

والحل؟ نطلب من العروس السكوت فلا تسكت.. ولك اسكتي خمس دقائق حتى تلد هذه البقرة، ثم اصرخي ماشئت، كدَّسنا اللُّحف واللُّباد فوق العروس، وأحكمنا اغلاق الأبواب. ولك يا كاظم آغا أنت لم تسمع مثل هذا الصراخ. انزل إلى سوق البلدة واستمع من هناك إلى صراخ عروسنا. أي مخلوق هي يا أخي؟ وصوتها لا يبح أبداً. وماهي إلا فتاة ناحلة مثل الإصبع، ومن كثرة صراخها امتلأ جسمها هواء، وسوف يطير ويذهب، وستنتهي العروس.

قال صالح بهلوان:

ـ خذوا هذه العروس إلى البلدة ليعالجها طبيب، بينما تلد البقرة الغبراء هنا.

ولا أمل غير ذلك، فنحن مجبرون على العمل على شفاء العروس فلو ماتت سوف ندخل في مشاكل مع الأحول.

ألقينا العروس في عربة، وما أن ابتعدنا عن القرية مقدار شرب سيجارتين أو ثلاث حتى كانت بقرتنا الغبراء قد سارعت بالولادة وقد أحست بالهدوء والسكينة.

وصلنا البلدة، وكان السوق مقاماً فيها ذلك اليوم، فاقترب أحد المعارف وقال:

ـ أليست لديك رحمة ياخالي رجب؟ ما بالك حمَّلت العربة هكذا جبلاً من الجلَّة؟ هيا أنزل هذا الحمل.

ـ يخرب ديارك، ليس حمل جلَّة، إنها عروسنا..

وكان بطن العروس يبدو تحت الأكياس مثل جبل.

بحثنا عن طبيب، لا طبيب في البلدة. قالوا:

ـ يوجد ممرض بدلاً عن الطبيب.

أخذناها إلى المرض.

ولما رأى المرض بطن عروسنا المنفوخ مثل جبل قال:

ـ هذه الحالة تفهمها القابلة.

ذهبنا إلى القابلة.. فأصرت قائلة:

ـ انقلوها إلى المشفى..

سقنا العربة إلى مشفى الولاية! الطبيب المختص بهذا المرض غير موجود، يوجد طبيب آخر بدلاً عنه. عرضنا العروس على هذا الطبيب، كتب لنا وصفة، ذهبنا إلى الصيدلية. هذه الأدوية غير متوفرة. عدنا إلى الطبيب وقلنا له:

ـ الأدوية التي وصفتها غير متوفرة..

ـ خذوا هذه الأدوية بدلاً عن تلك.

كتب لنا وصفة أخرى. وهذه الأدوية التي وصفها أيضاً غير متوفرة. قال الطبيب:

ـ إذن خذوا هذه بدلاً عن تلك. هذه أيضاً تفعل فعلها. وهذه أيضاً غير متوفرة.

الطبيب غير موجود، يوجد ممرض بدلاً عنه، المرض غير موجـود القابلـة بدلاً عنه. الدواء غير متوفر، هذا الـدواء بـدلاً عنـه، وبـدلاً عـن هـذا الـدواء ذاك الدواء.. ذاك الدواء غير متوفر..

قال لنا أحدهم:

ـ بدلاً من أخذها إلى الطبيب، خذوها إلى شيخ يقرأ لها..

إن لم يكن في هذه البلدة طبيب أو قابلـة أو ممـرض أو دواء، الحمـد لله أن في البلدة شيخاً.. يوجد شيخ نَفَسه قاطع.. قال لما رأى بطن عروسنا:

ـ آخذ منكم خمس ليرات.

ـ أماناً ياشيخ، قيل إنك تأخذ من غيرنا ليرة واحدة.

ـ انظروا إلى هذا البطن، أنا سـأكتب علـى بطنـها، وسـوف يسـتهلك هـذا البطن حبراً قيمته ليرة واحدة.

الشيخ على حق.. دفعنا الخمس لـيرات، أخـذ الشـيخ العـروس إلى غرفـة أخرى، وبدأ بالكتابة، ا نتظر، انتظر، العروس لا تخرج.

أماناً ياشيخ.. الشيخ سيملأ البطن كتابة.. وهل تكفي بطن عروسنا كتابة، وهل يكفيه حبر؟..

وفيما كان الشيخ مستغرقاً في الكتابة، امتلأ البيـت برجـال الشـرطة. ولـك ماهذا؟ ضبطوا الشيخ وهو يكتب على بطن عروسنا. ساقونا جميعاً إلى المخفر.

سألنا رئيس المخفر:

ـ لماذا ذهبتم إلى الشيخ؟

ـ ولماذا لا نذهب؟ لا يوجد طبيب. مكان الطبيب يوجد ممرض.. لا يوجد دواء، بدل ذاك هذا.. هذا غير متوفر، بدلاً عنه ذلك، ذلك غير متوفر، بدلاً عنه هذا.. ونحن جئنا إلى الشيخ.

قال رئيس المخفر:

ـ ممنوع، لا يوجد شيخ..

ـ لماذا؟ ها هوذا الشيخ..

ـ ألا تعرفون، حدث انقلاب..

ـ وما هو الانقلاب؟ وإن حدث انقلاب فقد حدث، مالنا نحن وللانقلاب؟ مهما كان هذا الذي تدعونه انقلاباً فهل يستطيع أن يولد عروسنا، هل يشفيها؟ لا يستطيع إشفاءها.. ولك يخرب بيتكم، بدل أن يحدث هذا الانقلاب لو يحضر طبيب، لو يتوفر دواء، أو أي شيء ينقذ العروس، ولا تحترق أموالنا..

قلنا نذهب إلى الشيخ بدلاً عن الطبيب، ولأنه حدث انقلاب لم يبق شيخ أيضاً. عندما يحدث انقلاب لا يُكتب على بطون النساء. هكذا يا أغوات.

سكت الخال رجب، فسألته:

ـ ماذا حل بالعروس؟

ـ ماتت أثناء مغادرتنا المخفر.

فسأله القهواتي كاظم آغا:

ـ هل استرجعت مال المهر من شعبان الأحول؟

ـ استرجعت قسماً منه، وبقي قسم. تمنَّع في البداية، فقلت له: أقتلك أيها الأحول السافل. فقال << لقد بقيت ابنتي زوجة لابنك طيلة فترة من الزمن >> قلت << ومتى كانت زوجة له؟ هل ذهبت يوماً إلى الطاحون، أم خرجت إلى الأرض، أم ذهبت لتحتطب، أم ذهبت إلى البيدر، أم طبخت طعاماً؟ تزوجت وفي اليوم الثاني انتفخ بطنها فانقلبت ونامت >>. شددت عليه خناقه، فاستطعت أن أقتطع منه مئة وسبعين ليرة مفتتة بدفعات صغيرة، ثم مات الأحول أيضاً، فمات معه عجلنا وليراتنا الثلاثون. لكني سأمسك بخناقه في الحياة الآخرة لأنه دس لنا ابنته، أوليس هناك حساب أمام الله؟

قال القهواتي كاظم آغا:

ـ حمودة الناشف لا يحترق لأن زوجته ستموت، بل لأن أمواله ستضيع، فقد عدَّ أبوه ألف ليرة مهراً لهذه العروس، وإن ماتت زوجته قبل مضي سنة على زواجه، فلا بد أن يحترق حمودة الناشف.

فتح الباب، دخل حمودة الناشف. كان متهالكاً أكثر من ذي قبل. فسأله كاظم آغا:

ـ لا تكون المرأة ماتت ولك؟

بقي الناشف ساكتاً. فقال الخال رجب:

ـ هل كان هكذا لو ماتت؟

رفع حمودة الناشف رأسه عن الأرض ببطء، وقال بصوت خافت:

ـ لقد وضعت المرأة.

فردد مَن في المقهى:

ـ مبروك ياناشف..

فصرخ:

ـ أي مبروك يا.. لقد وضعت المرأة بنتاً.

قال كاظم آغا:

ـ آآآ ! ..

وقال الخال رجب:

ـ واخ، واخ، واخ..

وران على المقهى صمت ثقيل طويل.

كلمة الافتتاح

٤

مدَّ إصبعه من نافذة القطار، وأشار إلى مدخنة مصنع تسبح بعيداً في الأفق الأزرق الملفح بالضباب في أقصى منطقة شاسعة مترامية الأطراف. ولما نظرنا من بعيد تبيَّنا بالكاد أنها مدخنة! إذ كانت تنتصب مثل قلم رصاص صغير تضاءل وتضاءل من كثرة الاستعمال.

قال الرجل الذي أشار باصبعه من نافذة القطار إلى هذا السواد:

ـ أنا من ألقى كلمة افتتاح هذا المصنع.

تساءل أحد رفاق السفر ممن في المقصورة:

ـ أهذا مصنع؟

ـ نعم مصنع..

ـ مصنع ماذا؟

ـ والله أنا لا أعرف مصنع ماذا هو.

ـ ألقيتم كلمة افتتاحه ولا تعرفون نوعيته؟

قال مسافر آخر مجيباً عن الرجل:

ـ ربما نسي.

قال الرجل الذي ألقى كلمة الافتتاح:

ـ لا، لم أنسَ، حتى عندما ألقيت كلمة الافتتاح لم أكن أعرف ما نوع هـذا المصنع.

ـ حسناً، ألا يعمل؟

ـ ربما هو يعمل الآن، أما في حفل الافتتاح وعندما كنت ألقـي الكلمـة فلـم يستطيعوا تشغيله.

سأل أحد المسافرين:

ـ هل كنتم مديراً لهذا المصنع؟

ـ لا.. لم أكن أي شيء.

ـ إذاً، كانت لكم صفة رسمية..

ـ لا ياروحي، لم تكن لي أية صفة.

ـ أما إنها شغلة.. طيب، كيف ألقيتم كلمة افتتاح مصنع لاتعرفونه؟

ـ إنها محض صدفة. أنا منذ صغري أتكلم جيداً. لست أتباهى لكن لغتي الخطابية قوية جداً. أنا لا أحسن الكلام عندما أكون جالساً جلسة عادية، لكني ما أن أصبح أمام جمهور حاشد حتى تتنزل علي من عند الله قدرة خطابية. إنها هبة من الله.. فما أن أقف أمام الحشد وأبدأ بالكلام لا يستطيع أحد الامساك بي، إذ يأتيني صفاء ذهن يا أخي بحيث أتكلم وأتكلم ساعات طوالاً. وهذه مسألة قابلية ياسيدي. ما معنى الخطابة؟ إذا ما فتحت فمك مرة وبدأت بالكلام، لا يجوز أن تغلق فمك أبداً، يجب أن تتكلم وتتكلم دون توقف. ولكن ماذا ستقول؟ أي شيء.. لا تهتم بأن تكون نهاية الجملة مرتبطة ببدايتها، هذا ليس مهماً. فالصعوبة كلها تكمن في البدء بالكلام. فإن لاحظت أن الفاعل في الجملة التي بدأتها لا يناسب الفعل، وأن الفعل غير مرتبط بالفاعل فحذار أن تتفاصح، أطل الجملة وأطلها ما استطعت عندها يضيع المستمعون في متاهات الكلام، ويرتبكون بين الفعل والفاعل وفي النهاية يكونون مجبرين على التصفيق لك وهم يقولون << واضح أن الرجل تكلم كلاماً هاماً >>. فلكم ألقيت مثل هذه الكلمات يا أخي. وبعد الانتهاء من إلقاء كلمتي كان الجميع يأتون ويهنئوني. ومنهم من يقبل جبهتي. ومنهم من يقبل عيني، ومنهم من يقبل يدي. حينها كنت أسائل نفسي<< ولك أنا ماذا قلت؟ >> وكنت أحار وأدهش فأنا نفسي لا أعرف ماذا قلت يا أخي. لا أنا أعرف، ولا المستمعون يعرفون. ويمكن الحكم على جودة الكلمة بما يلي: تسأل الخطيب << ماذا أفهمت؟ >> وتسأل المستمعين << ماذا

فهمتم؟ >> فإن كان الخطيب لا يعرف ماذا قال والمستمعون لا يعرفون ماذا قيل، ويؤكدون بقولهم << ولكن الرجل تكلم كلاماًهاماً جداً >>. عندها يمكن تصنيف هذه الكلمة بأنها كلمة من الدرجة الأولى.

كنت في المدرسة طالباً كسولاً جداً، خاصة في دروس الرياضيات والهندسة، إذ كنت فيها صفراً. لكني مع ذلك لم أرسب في صفي سنة واحدة.. والفضل كله يعود لمقدرتي الخطابية هذه. ففي الحصة الأخيرة لكل مدرس في نهاية العام الدراسي كنت أنهض وأقول:

ـ سيدي لو تفضلتم وسمحتم لي فإني سأعرض عليكم عرضاً باسم طلاب صفنا.

فإن أخطأ المدرس مرة وقال:

ـ ماهو؟ تكلم..

فقد احترق، إذ كنت أبدأ فوراً:

ـ بمناسبة انتهاء العام الدراسي، فإني سأكون ترجماناً لمشاعر وأحاسيس رفاقي تجاه جهودكم الجبارة ومساعداتكم الغالية ياسيدي..

أقول هذا، وقبل أن يصحو المدرس من ذهوله وحيرته أكمل قائلاً:

ـ سيدي!.. على مدار سنة كاملة أضأتم لنا الأضواء لنمشي في طرقات العلم المنيرة، وهديتمونا.. أنوار، أضواء، فنون العلم..

وأرمي الكلام، أي كلام يأتي على فمي، وأي فكرة تخطر ببـالي، والمهارة كل المهارة في أن لا تتوقف، وأن تستمر في الكلام دون أن تعطي المستمع فرصة ليسأل << ولك ياعالم، ماذا يقول هذا ؟ >>. كان المدرس يدهش في بداية كلامي، وبعدها كان يذهل ويشرد، ثم كانت أساريره تتهلل وتقاسيم وجهه تنبسط، ثم تغيم عيناه، وترتجف لحيته وترتعش يداه، وتتقطع أنفاسه. وأنا أتكلم بلا توقف، ولكن أي كلام!.. لو كان صخراً لما احتمل ولبكى أمام كلماتي تلك. يبدأ المدرس بمسح أنفه عدة مرات، ويزدرد ريقه، بعدها يفقد صبره وتحمله وتبدأ الدموع تنهمر من عينيه غزيرة مدرارة.أنا أتكلم وهو يبكي. أنا أتكلم وهو يبكي. وأنظر إلى وجهه بين الفينة والفينة، فإن لاحظت أن الرجل صار على وشك الاغماء كنت أتوقف عن الكلام. وهنا يأتي دوره إذ يرغب في أن يقول لنا شيئاً. لكن أغلب المدرسين ماكانوا يستطيعون الكلام، فكان أحدهم يقول وهو يشرق بالدمع ويسحب أنفاسه والمنديل بيده:

ـ أولادي، إن تأثري البالغ يجعلني عاجزاً عن التعبير لكم عن مشاعري وأحاسيسي.

يقول هذا ويغادر الصف. أما نحن فكنا نطلق القهقهات من خلفه.

كان لدينا مدرس كيمياء يدعى صبري أبو صفار، مشهور في المدارس كلها بمقولته الشهيرة: << العشرة لجناب الله تعالى، والتسعة لي، أما الثمانية فهي لأشطر طالب من طلابي >> لكنه حتى ذلك الوقت لم يعطِ أحداً من طلابه علامة الثمانية. صار الرجل مدرساً لصفنا. وفي نهاية العام ألقيت أمامه كلمة كاد

المسكين صبري أبوصفار أن يروح فيها لشدة تأثره، إذ دخل الطلاب تحت إبطيه وأخرجوه من الصف بصعوبة وأوصلوه إلى غرفة المدرسين.

حضر الطبيب وسأل ماذا حدث ياصبري بيك؟

لم يستطع صبري أبوصفار أن يتكلم من فرط تأثره وشدة بكائه. أما المدرسون الآخرون فقد فهموا فوراً أنني ألقيت كلمة. يا أخي، أنا حصلت على عشر علامات من صبري أبوصفار المشهور ذاك. فما أن لمحني الرجل وأنا أدخل قاعة الامتحان حتى راح يبكي ويقول:

ـ خذوا هذا، أخرجوا هذا !.

ومنحني الرجل عشر علامات. مرت سنوات عدة وأحيل صبري أبوصفار إلى التقاعد، لكنه حتى الآن لا يستطيع أن يمسك دموعه أينما شاهدني، وحيث رآني، ويبدأ بالبكاء حين يلمحني من بعيد.

يجب عدم الاهتمام بوجوه هؤلاء المدرسين العابسة، فأشدهم عبوساً يكون أرقهم قلباً. هكذا أنهيت دراستي بفضل هذه الخطابات والكلمات. ثم صرت موظفاً، وعينت في الأرياف، وتنقلت في أنحاء الأناضول وتجولت فيها شبراً شبراً. والحقيقة أني لم أعمل طيلة حياتي الوظيفية، لكني حصلت على ثناءات وتقديرات جيدة من رؤسائي، وكنت أترفع دوماً درجتين درجتين. هذه الأمور كلها كانت بفضل مقدرتي الخطابية ياعزيزي. إذ كنا نعقد اجتماعاً أو اجتماعين على الأقل في الأسبوع. فإما أن يغادرنا مسؤول فنقيم له حفلة وداع، أو يأتينا

مسؤول جديد فنقيم له حفلة استقبال. هذه المسألة لا بد أن تتكرر في الأسبوع أو في الشهر. فإن جاء مسؤول وجلس إلى مائدة الضيافة، كنت قبل أن يتناول أحد المشروب أرفع كأسي بيدي وأنهض واقفاً وألقي كلمة استقبال. بعدها تصبح الأمور كلها تماماً.. وحين مغادرته ألقي كلمة وداع:

ـ أيها الرفاق المحترمون نعيش اليوم لحظات حزينة وقاسية من أقسى لحظات عمرنا وأشدها حزناً لأن المحترم الذي سيفارقنا..

كنت أجعل كل من على المائدة يجهش بالبكاء، وإن كانت الحفلة مقامة في مطعم شارك عمال المطعم والطباخون في البكاء أيضاً.

هكذا أمضيت حياتي يا أخي.

كنت قد حصلت على إجازتي السنوية قبل أربع سنوات من الآن. وكان لي صديق منذ أيام الطفولة، اسمه حمدي.. كنت ذاهباً إلى استانبول لقضاء إجازتي فيها. وفي الأوتوبيس صادفت حمدي هذا. فالتففنا ببعض وتعانقنا. فقد مرت سنوات طويلة لم نلتقِ فيها. ورحنا نستذكر سوية كيف كنت أُبكي المعلمين، ثم الرؤساء، والمسؤولين بكلماتي الخطابية التي كنت ألقيها أمامهم.

ثم تشبث حمدي بي قائلاً:

ـ ابق لدينا هذه الليلة، فغداً سنقيم حفل افتتاح مصنعنا.

فوافقته. ونزلنا من الأتوبيس في المكان الذي أشرت إليه قبل قليل، وأمضيت تلك الليلة في بيت حمدي. وفي اليوم التالي انطلقنا إلى المصنع. وكانت

ترتيبات الاحتفال على قدم وساق. وقد اكتظت الساحة بالحيوانات حتى صارت أشبه بسوق لبيع الحيوانات فسألت:

ـ ماهذه الحيوانات؟

أجاب حمدي:

ـ إنها ذبائح..

كانوا قد غسلوا الأكباش، وصبغوها بالحناء، وزينوا قرونها، وأوقفوها بالدور، كما غص المكان ببقية أنواع الذبائح من أبقار وجمال وجواميس سيذبحونها فور افتتاح المصنع وبدء عمله أمام أعين الجميع. وجهزت الأشرطة الحريرية، وهيئت موائد الضيافة في المحطة وفي البلدة كل على حدة. كل شيء جيد والأمور تسير على ما يرام.. وبدأ الأهالي يتوافدون منذ الصباح، وازدحم السهل الفسيح الذي يقع المصنع وسطه، واكتظ بالناس. وعند الظهيرة بدأت السيارات تصطف صفاً صفاً. كل شيء على ما يرام. اعتلى حمدي المنصة، هذا الولد الفاشل الذي لا يعرف الكلام. وبعد بضع كأكآت قال:

ـ والآن سيتفضل السيد فلان ويفتتح تشغيل مصنعنا بيديه الكريمتين.

وحسبما هو متعارف عليه فإن ذلك الرجل المذكور سيضغط زراً، أو يدير ساعداً، أي سيعطي إشارة التشغيل. وسينطلق المصنع بالعمل أمام أعين الجميع. صعد صاحب المعالي ذاك إلى حيث أشير إليه وضغط الزر، ضغط ثانية وثالثة..

وفيما كان يضغط الزر كانت القرابين قد بُطِحت أرضاً ووُضعت السكاكين على حلوقها.

بعد أن ضغط الزر عدة مرات، وليقينه بأن الضغط غير صحيح، صعد حمدي وضغط الزر أيضاً، ثم أعقب ذلك همس وهمهمة ثم لغط، وتغيرت الوجوه.. الله الله..

في هذه الأثناء جاءني حمدي راكضاً، وبوجه ممتقع.. قال:

- أرجوك، أقبل يديك ورجليك، إن كان سيحدث شيء حسن فسيصدر عنك.

- أرجوك يا أخي، ماذا سيصدر عني، إنني حتى لا أعرف في أمور المصانع وأعمال الميكانيك..

- آه يا أخي، سيقضى علي هكذا، ولا منقذ لي سواك.

- كيف يمكنني إنقاذك ياحمدي؟

- اصعد إلى هنا وألقِ كلمة. فلقد جهزنا المصنع تماماً لكننا نسينا تركيب قشاط الدوزان. وإلى حين تركيب القشاط اصعد إلى هنا وتكلم عشر دقائق، فلا أحد غيرك يستطيع ذلك، أقبل عينيك ألقِ كلمة، يغفل بها هؤلاء الرجال عنا، في حين نركب نحن القشاط.

ماذا أفعل. إنه خاطر صديق. صعدت المنصة..

ـ أيها الضيوف المحترمون.. هكذا بدأت كلمتي لكني ماكنت أعرف حتى مصنع أي شيء هو هذا المصنع. كان حمدي قد أخبرني عن ماهية المصنع عندما جئنا إلى بيته في وقت متأخر من الليل، لكن تعب السفر، وغلبة النعاس، كانا قد أنسياني ماهية هذا المصنع. كنت أتكلم من ناحية، ومن ناحية ثانية كنت أجول ببصري في أطراف المصنع علني أكتشف وأعرف مصنع أي شيء هو. أنظر وأنظر لكني لا أفهم شيئاً. أهو مصنع سيارات؟ أم هو معمل سكر؟ آه لو عرفت إذن لتكلمت أربعاً وعشرين ساعة. وأبحث بعيني عن حمدي فلا أجده، أكاد أجن، وقد بدأت الحديث مرة..

ـ ضيوفنا المحترمون والمحترمون جداً. إنه لشرف كبير لنا.. نحن جميعاً أن نرحب بكم جميعاً.. لأنه.. بتكبدكم مشقة الحضور إلى هنا.. فمهما قلنا فهو قليل.. و.. بعد قليل عندما يبدأ هذا المصنع بالعمل بحضوركم سوف تلاحظون أنه.. وقبل كل شيء فالمصنع يعني للبلد أول..

وفيما كنت أملأ الكأس ماء من الابريق الذي على المنصة همست للرجل الواقف خلفي:

ـ حمدي كان سيركِّب قشاطاً أو أي شيء، قولوا له فليركِّبه بسرعة!

فأجابني الرجل:

ـ لقد تم تركيب القشاط، لكن المصنع لم يشتغل، لقد نسوا إدخال الحلقة في رأس الميل الرئيسي، والآن هم يبحثون عن الحلقة.

بدأت بشرح معنى كلمة مصنــع، والمصدرالـذي اشـتقت منــه هـذه الكلمـة. فسأل أحد ركاب المقصورة:

ـ حسناً، وهل كنتم تعرفون معنى الكلمة وأصلها ومصدرها؟

ـ لا ياروحي لا معرفة لي بذلك.. أنا نفسي لا أعرف، وهل تظن المستمعين يعرفون؟

رحت أشرح مصدر كلمة مصنع، وأن أصل هذه الكلمة لاتيني قديم، وبعــد ذلك تحدثت عن تاريخ المصانع، وبينت أين أقيم أول مصنع. وإذ بي ألمح حمدي فجأة من بعيد. كان يتوسل إلي بالاشارات بما يعني << أرجوك أطل الكلام >>.

ـ ضيوفنا المحترمون، ستلاحظون الآن عندما يبدأ المصنــع بـالعمل أن هــذا المصنع لا يشبه أي مصنع آخر، وأنه بين أمثاله من المصانع.. الأول وفي المقدمة..

نظرت إلى الساعة، مضت خمس عشرة دقيقة على بدء كلمتي، ملت علــى الماء ثانية، وقلت للواقف خلفي:

ـ ولك ماذا حدث؟ ألم يركِّبوها بعد؟

ـ ركَّبوها، لكن المصنع لم يشتغل، حمدي بيك يســلم عليـك ويقـول ليطـل الكلمة قليلاً. فقد نسوا تركيب الخزان الصغير، وهم الآن يقومون بتركيبه.

تكلمت نصف ساعة أخرى:

ـ ماهو أهم مـا تحتـاج إليـه بلـد مـا؟ قولـوا مـا هـو؟ << نظـرت في وجـوه المستمعين >> طبعاً كلكم تعرفون أن أهم ما تحتـاج إليـه البلـد هـو المصنـع. لمـاذا المصنع؟ لأن للمصنع خزاناً، وله بواري ماء، وإذا فقد أي واحد منـها فـالمصنع لا يشتغل أبداً. وبعد أن شرحنا هذه الحقيقة.. نقول لكم ثانيـة أهـلاً بكـم جميعـاً.. أيها الضيوف المحترمون.. والآن إذا سمحتم سأوضح لكم شيئاً عن المصنع.. ماهو المصنع قبل أي شيء آخر؟ إنه مصنع.. هذه المعلومة إذا لم تُعرف فلا يمكن أبـداً تشغيل أي مصنع.. و..

في هـذه اللحظـة وضعـوا أمـامي ورقـة. قـرأت المكتـوب فيـها. أرسـلها حمدي: << أرجوك يا أخي، أطل كلمتك قليلاً. فبـدلاً مـن تركيـب المدخنـة فـوق بيت النار ركّبناها فوق نافذة غرفـة الإدارة. والآن نفتـح مجـار جديـدة للمدخنـة. أطل كلمتك وإلا فإني سأهلك >>.

التفتُّ إلى المستمعين وقلت:

ـ لقد وصلتنا برقية تهنئة من دولة صديقة مجاورة بمناسبة افتتاح مصنعنا، ويطلبون إنتاجنا منذ الآن.

نفد الماء الذي في الإبريق. غابت الشمس، حل المساء، ثم خيم الظلام وأنـا مازلت أتكلم. ثم فهمت أن كل شيء صار جاهزاً الآن إلا أنهم نسـوا التعـاقد مـع ميكانيكي لتشغيل المصنع. قال الذي خلفي:

ـ رجاء تكلموا قليلاً أيضاً، إنهم يبحثون عن ميكانيكي.

أمسكت فوراً بكتفي الرجل الذي خلفي وسحبته إلى أمام الميكروفون وقلت:

ـ والآن أيها الضيوف المحترمون، سيقدم لكم المهندس المختص شرحاً قصيراً عن المصنع.

ونزلت فوراً من هناك ومشيت مغادراً باتجاه البلدة حيث استقليت سيارة وهربت. ومنذ ذلك الوقت وحتى اليوم لا أعرف فيما إذا كان المصنع قد اشتغل أم لا. كما أني لم أصادف حمدي ثانية إلا أني سمعت أنه سافر في العام الماضي في مهمة إطلاعية إلى أوروبا على رأس وفد كبير.

مطلوب خادمة

٥

الأعور يطلب عيناً، والله يمنح عينين. هكذا يقال. وهكذا حصل معي، فقد ترقيت، ونقلت إلى استانبول. إذ اقتربت مرتبتي الوظيفية من القمة، فإن ترقيت درجة أخرى أصبحت في قمة السلم الوظيفي. كنا قد مللنا تماماً التنقل في الأنحاء والمناطق على مدى سنوات طويلة. وكان أكثر ما يزعج زوجتي ابنة استانبول أن الأولاد لم يربوا في استانبول. إه فلينشؤوا الآن تنشئة استانبولية. كان الصبي قد سبقنا إلى استانبول قبل سنة لإتمام دراسته الجامعية. والبنت ستدخل الجامعة هذا العام. أما الصغير فما زال في الثانوية.

أنا موظف من درجة رفيعة في البلد، وأعتبر من وجهاء وكبار رجالات استانبول الكبرى. حتى أن الصحف

أوردت خبر نقلي إلى استانبول، وهذا شيء ليس بالقليل بالنسبة لانسان مثلي في هذه الدنيا الفانية. أقول لانسان مثلي لأن تربية ثلاثة أولاد وتعليمهم وحماتي وزوجتي، أي أن أكون مسؤولاً عن ستة أفراد في البيت، وأن أعيش على مجرد الراتب الوظيفي الشهري بدون عشر ليرات برَّانية، وبدون شيء مجاناً ولو بخمس ليرات، وبدون رشوة، وبدون بقشيش على مدى أربع وعشرين سنة من الحياة الوظيفية، لم يكن أمراً سهلاً أبداً.. عشنا ولكن ماذا حدث. ليست لدينا ثلاجة، ليست لدينا مكنسة كهربائية، ليست لدينا غسالة كهربائية، ليكن.. نشتريها في استانبول رويداً رويداً..

في الشهر الثاني من قدومنا إلى استانبول، فُتح في البيت فجأة موضوع استئجار خادمة، وماعاد يغلق أبداً. فقد تغير شيء في زوجتي بعد طول هذه السنين، ثم انتقل هذا التغير بالعدوى إلى حماتي وإلى الأولاد، إذ صار هذا الموضوع يفتح كل مساء بعد عودتي من عملي إلى منزلي.

ـ وآل نرمين الذين في الطابق العلوي استأجروا خادمة. وزوجها مجرد بائع قطع تبديل.. إفهمها، الرجل ليس بائع معدات ميكانيكية أساسية، بل بائع قطع تبديل، ومع ذلك استأجر لبيته خادمة.

ـ حتى آل بريزاد لديهم خادمة. وأنت لا تفتأ تردد: أنا من كبار الموظفين، أنا هكذا، أنا كذلك، وتصرف كلاماً كبيراً من كيس واسع.

ـ أليست هناك لالا، جارتنا التي هنا.. حتى تلك لديها خادمة، فقد أثرى زوجها من بيع المسامير..

ـ أما في بيت آيفر فهناك خادمتان.. حيث أثروا من بيع إطارات السيارات المستعملة.. ولما سألتها أجابت << لايمكنني أبداً أن أعيش بدون خادمة.. >> وأنا ألست انسانة؟ انظر كيف صارت حالة يدي بسبب غسل الغسيل وجلي الأواني..

يكادون يأكلون لحم رأسي وهم يطالبون بخادمة، بحيث مللت وقرفت فقلت:

ـ حسناً، اعثروا على خادمة ولنستأجرها..

وما أحسن ما قلته. إذ ارتاح رأسي بعد هذا الذي قلته. انشغل جميع أفراد البيت بالبحث عن خادمة. واتضح أن العثور على خادمة أصعب من العثور على عمل، أو من العثور على بيت للايجار، أو من الحصول على قرض، بل وحتى أصعب من العثور على البترول. فلم يعثروا على خادمة بأي شكل من الأشكال.

يحل المساء ولا طعام في البيت، فتقول زوجتي:

ـ اليوم أيضاً لم أستطع طبخ طعام، بسبب بحثي عن خادمة، فلنأكل من حواضر البيت..

وعند الصباح إذا قلت:

ـ قميصي متسخ..

ترد علي قائلة:

ـ اعذرني إذ لم أغسل، بسبب بحثي عن خادمة، إلبَسه هـذا اليـوم أيضـاً و..

لا البيت يكنس، ولا الطعام يطبخ، ولا الأواني تجلى، فقط يجري البحث عن خادمة.

قـالت إحـدى معـارف زوجـتي، إن الخـدم الذكـور يعملـون أفضـل مـن الخادمات، وبأجور ارخص. فاحتدت حماتي جداً لهذا الكلام وقالت:

ـ ما معنى هـذا؟ سـيتجول الرجـل مثـل خـازوق في أنحـاء البيـت، أليـس كذلك، وماذا سنرى ونسمع بعد.. أليس في البيت شابات، هل جننت؟ لا أريـد، ولا يمكن أبداً.. وهل سيغسل ملابسي هو أيضاً؟ قديماً كان هنـاك أمثـالهم، إنمـا كانوا يسمون بالغلمان والطباخين وماكـانوا يسـتطيعون الدخـول داخـل البيـوت، كـانوا يعيشـون في قصـور الاغنيـاء، أو في أكشـاكهم في الأريـاف، أو في أكشـاكهم الصيفية على ضفاف الأنهار، لا في بيـت مثـل بيتنـا مكـون مـن ثـلاث غـرف في بناية.. وكيف يرتب رجل الناس غرفة النوم؟..

وكم قالت أشياء أكثر وأكثر، وتلاسـنت الأم والابنـة. ولكـي أرفـع حـرارة الملاسنة بينهما قلت:

ـ قديماً كانوا يدعونهم الغلمان، وماذا يضر، الآن يدعونهم الأولاد..

موضوع الخادمة هذا الـذي أزعجـني جـداً في البدايـة، صـار شـيئاً فشـيئاً مجال تسلية لي بعد أن رميته عن كاهلي، فصرت عندما أعـود إلى البيـت مسـاء، أصطنع الحدة في صوتي وأقول:

- إلى ماذا سيؤول حـال هـذا البيـت؟ ألم تعـثروا علـى خادمـة حتـى الآن ياروحي؟ لا أحد من أصدقائي بلا خادمة، إني أشعر بالخجل والله. والحال إني من وجهاء استانبول.. عيب يا! لو جاء أحد أصدقائي ضيفاً علـي ولاحـظ عـدم وجود خادمـة في بيتنـا سـنفتضح.. لاتنسـوا علـى الأقـل أن تقولـوا في مثـل هـذه المواقف << إن الخادمة في إجازة اليوم >>.

وفيما أنا أتسلى بهذا الموضوع، قالت زوجتي ذات مساء:

- يجب علينا مراجعة مؤسسة تأمين العمل والعمال للعثـور علـى خادمـة، هكذا قالوا..

ونحن فعلنا كذلك، وفيما كان موظف المؤسسة يسجل عنوان منزلنا قال:

- لوكنتم تطلبون حداداً أو خراطـاً أو لحامـاً أو نجـاراً لكـان الأمـر سـهلاً، فهناك الكثير من هؤلاء بلا عمل، أمـا الخادمـات فـلا وجـود لهـن، والخادمـات يبحثن عن عمل، لكن الناس يتخاطفونهن فوراً.

انتظرنا خبراً من مؤسسة تأمين العمل والعمال على مدى عشرة أيـام ولكـن بلا طائل.

وبعد ظهر أحد أيام الجمعة قدمت امرأة شابة وقالت بأنها مرسلة من قبل المؤسسة فأدخلوها. كانت في حوالي الثلاثين من عمرها، وإن كان وجهها غير مقبول إلا أن قوامها كان جميلاً جداً..

أدخلناها إلى صالة الاستقبال، فجلست من تلقائها على مقعد وأخرجت سيجارة من حقيبتها، وضعت السيجارة بين شفتيها، وتطلعت تبحث عمن يقدم لها ناراً، قدحت قداحتي وأشعلتُ سيجارتها. قالت:

ـ قيل إنكم تبحثون عن مساعدة..

أجابت زوجتي:

ـ نعم..

ـ هل أنتم كثرة؟

ـ ستة أشخاص.. سنصبح سبعة معك.

ـ آ آ آ كثير.. كم عدد الذكور فيهم؟

ـ ثلاثة.. لكن أحدهم ما زال في الخامسة عشرة..

ـ لا أحتمل.. كنت أظنه بيت رجل عازب.. هكذا قالوا لي في مؤسسة تأمين العمل.

رفعت زوجتي حاجبيها ونظرت إلي وسألتني:

ـ هل سجلت نفسك عازباً في مؤسسة تأمين العمال؟

ـ لا.. فهم لم يسألوني عن وضعيتي العائلية..

أفهمتنا المرأة أنها تعمل منذ ستة أشهر عند رجل عازب. وأنها مرتاحة جداً، لكنها تريد ترك العمل هناك لأن زوجة الرجل ستأتي عن قريب. وفيما كانت توضح لنا ذلك كانت تخرج المرآة من حقيبتها وتعيد ترتيب حمرة شفاهها، وبودرة وجهها.

احتدت زوجتي وقالت بانفعال:

ـ لقد أتعبتِ نفسك، بيتنا غير لائق بك..

آه لكم صارت أيامنا ملأى بالتسلية بسبب مسألة البحث عن خادمة. وقبل كل شيء أن زوجتي صارت تبحث عن مبرر للمشادة معي فلا تجده. وهي إن قالت << أنت تسجل نفسك عازباً في مؤسسة تأمين العمال، وتجعل الساقطات يأتين إلى بيتي، أليس كذلك.. >>. إلا أنني كنت راضياً بهذا القدر.

وفي إحدى الأمسيات قالت لي:

ـ لا يمكن العثور على خادمة هكذا، يجب الاعلان عن ذلك في إحدى الصحف. هكذا قالوا..

حسناً. أعلنا عن ذلك في إحدى الصحف.

وفي يوم من أيام الأحد.. قرع الباب. وكنت أنا الذي فتحته. قالت المرأة البدينة التي لا تكاد تسعها ضلفتا الباب:

ـ قرأت إعلانكم في الصحيفة و..

ـ تفضلوا إلى الداخل.. قلت هذا، لكن عينيَّ لم تحتملا منظر هذه المرأة. ماذا ستقول جماعتنا ياترى؟

لايمكن وجود مثل هذا الانسان إلا بين تماثيل الانكشاريين الشمعية في المتحف العسكري. فهي بدينة بشكل وطويلة لحد.. قامتها مئة وتسعون على الأقل.. هي ما شاء الله أشبه بالبحارة الذين كانوا على متن سفن بربروس أو بابا عروج.. وكانت أوردة ساقيها الزرقاء الغليظة نافرة وملتفة ببعض على شكل عقد تظهر حتى من تحت جوربيها. في الحقيقة أنا خفت من هذه المرأة، فإذا انزعجت من البيت لأي سبب فإنها تمسك بنصف أهل البيت بيدها، وبالنصف الآخر بيدها الثانية وتقلبنا بين يديها مثل عجينة، وتضربنا قياماً وقعوداً..

ـ عندكم تركي أم افرنجي؟ أنا أعمل التركي، والافرنجي..

ظننت المرأة تسأل عن مرحاض البيت. في البيت مرحاض تركي وفيه مرحاض افرنجي أيضاً، لكني ما سمعت أن العمل بهذين الاثنين يختلف من واحد لآخر.

قالت زوجتي:

ـ الاثنان موجودان. لماذا سألتم؟

ـ أنا أعمل ما تطلبونه.

فتساءلتُ:

ـ الله الله.. كيف يعني؟

ـ بعضهم يحب التركي. أنا بامكاني عمل الاثنين معاً. فأجهز مائدة على الطريقة الافرنجية، وأطبخ الأطعمة التركية أيضاً..

ها ها، اتضح الأمر..

ـ لكنني لا أقوم بأعباء البيت..

ـ يعني؟

ـ لا أكنس ولاأمسح.. لا أغسل الغسيل، لا أكوي الثياب، كم ستعطونني؟

قلت قاصداً دفع المرأة عن رأسي:

ـ نحن ولكونك تعملين التركي والافرنجي يمكننا أن ندفع لك مئتي ليرة.

ـ أسبوعياً؟ قليل جداً..

ـ لا، شهرياً..

أطلقت قهقهة عريضة، وراحت تكلمنا بحميمية وكأننا أطفال حولها:

ـ وماذا أيضاً..

ـ لا يمكنني أن أدفع أكثر..

تأثرت المرأة كثيراً لوضعنا، وغادرتنا. الاعلان في الصحيفة طنان ورنان أكثر، فكم من أشكال النساء توافدن على بيتنا على أنهن خادمات.

حين عودتي إلى البيت في إحدى الأمسيات وجدت أهل البيت تغمرهم فرحة يوم عيد.

ـ ماذا حدث؟ خيراً؟

ـ اسكت أرجوك، وجدنا خادمة..

ـ هل وجدتم خادمة؟

ـ اخفض صوتك، إنها في الداخل، قد تسمعك..

ـ وهل هذا شيء سري أو خفي؟ أنا لم أقل شيئاً سيئاً..

ـ أيجوز أن يقال خادمة ياروحي؟ ماذا نفعل إن غضبت وذهبت؟ الآن يقال للخادمات مساعدات.

ثم رفعت صوتها قليلاً:

ـ آيسل خانم!..

دخلت امرأة تتمايل وهي تمشي على رؤوس أصابعها. أوف. امرأة لا يمكن النظر لا إلى وجهها ولا إلى أي شيء فيها. ولا بد أن زوجتي اختارتها كي لا تغار منها.

أردفت زوجتي تعرِّف المساعدة عليَّ:

- زوجي..

قالت المساعدة وهي تزمُّ شفتيها:

ـ تشرفنا، أنا آيسل..

هل أنهض لها واقفاً؟ هل أقبِّل يدها؟ حرت فيما أفعله. تصافحنا. هندامها ومظهرها مظهر سيدات، بل إنها سيدة فوق العادة.. ولابد أن الزائرين سيخطئون ويخلطون بين السيدة والخادمة..

جلست وقالت:

ـ نسيت إحضار سجائري، هل تعطونني سيجارة؟

أسرعت زوجتي بالسيجارة، وأسرعتُ بقدح القداحة، فقالت:

ـ آ فلنتكلم، كم يمكنكم أن تدفعوا لي؟ يجب أن أعرف ذلك مسبقاً..

لا أعرف ماذا يمكننا أن ندفع، لم نفكر في هذا أبداً.

ـ لو دفعنا ثلاثمئة ليرة..

همست زوجتي في أذني:

ـ آ آ آ وماذا أيضاً..

قالت المساعدة:

أيها السيد حتى الموظف ماعاد يعمل بثلاثمئة ليرة في هذا الزمن، فسعر الجورب الواحد عشر ليرات.. وسعر أحمر الشفاه خمس عشرة ليرة..

ـ إنه وإن كان المبلغ ضئيلاً فإننا سنعمل على إرضائك، فأنا انسان ذو نية طيبة.

قالت وهي تبتسم ابتسامة ماكرة:

ـ هذا الأمر لايتم بمجرد النوايا الطيبة ياسيد..

إثر ذلك قلت بأنها يجب أن ترى ابني فناديته:

ـ جنكيز!

فعلاً فإن ابني لا يختلف في شيء عن جنكيز خان.

ـ نعم ماذا هناك يا بابا؟

ـ تعال ياولدي، فلتتعرف السيدة عليك أيضاً..

نظرت المرأة إلى جنكيز وقالت:

إكراماً لخاطركم الجميل أقبل بأربعمئة ليرة، مانوع ثلاجتكم؟

أجابت زوجتي:

ـ لا ثلاجة لدينا، لكننا سنشتري واحدة بالتقسيط عما قريب..

ياروحي بالتقسيط أو المقسيط، بماذا اشترينا نشتري، مـامعنى أن تشـرحي ذلك للخادمة الآن؟

ـ أخشى أنه ليس لديكم بيك آب أيضاً..

ـ لدينا راديو..

ـ ايعقل أن لا يكون لديكم راديو أيضاً.. إذا لم تتوفر أسطواناتي..

ـ نشتري.

ـ غسالتكم الكهربائية؟

ـ سوف نشتري.

ـ أنتم اشتروا هذه الأدوات أولاً..

نهضت واقفة وقالت:

ـ عفواً فأنا لا أستطيع العمل معكم.. اعذروني إذ أزعجتكم، أستودعكم الله..

سحبت الباب خلفها وغادرت.

قالت زوجتي:

ـ هل أعجبك مافعلته؟

ـ ماذا فعلت؟

ـ وماذا ستفعل أكثر من ذلك؟ لقد أُهِنَّا من قبل خادمة.. يعني أرادت المرأة أن تقول اذهبي أنت واعملي خادمة في مكان ما...

بدأت زوجتي بالبكاء والنحيب. وانسحبت حماتي إلى غرفتها وراحت تمسح جبينها بكولونيا ماء الليمون محاولة تهدئة أعصابها. ومنذ ذلك اليوم لم يفتح موضوع الخادمة في بيتنا أبداً. والتفت كل واحد إلى عمله، وعاد النظام والاستقرار إلى بيتنا.

جاءت بضع نسوة ممن قرأن إعلان الصحيفة، لكن زوجتي ردَّتــهنَّ جميعــاً من الباب قائلة:

ـ عثرنا على خادمة..

مَنْ عند مَنْ ٦

هل تعرف شيئاً اسمه << الدخول في الديون >> ؟ أنا أيضاً لم أكن أعرف شيئاً عن هذا، لكني عرفته عندما حلّت بنا هذه المشكلة. كان لنا مبلغ من المال لدى الدولة. كان يساوي خمس عشرة ألف ليرة وفق حساباتنا، بينما يساوي ألفي ليرة وفق حساباتهم. فهذا حساب، والحسابات لا تتطابق. فعندما كنا في المدرسة، كنا نحن الخمسون طالباً في الصف نحل مسألة واحدة، لكن النتيجة التي كان يخلص إليها أي طالب منا لم تكن تشابه نتيجة أي طالب آخر. كما كان المدرس يخلص إلى نتيجة أخرى مغايرة. وبما أن طلاب الصف الخمسين أولئك صاروا يعملون في مختلف مجالات العمل الآن فإني لا أعجب أبداً إذا لم تتطابق حساباتهم التي يحسبونها.

على كل حال.. قلنا لا بأس فلنأخذ هذه الألفي ليرة من الدولة. استغرق تحصيل الألفي ليرة مدة سنتين.. وإذا قلت التحصيل فأنا لا أعني أني قبضت المبلغ، إنما بدا كأني سأقبضه. وفي اليوم الذي كنت سأقبض فيه المبلغ حلَّت هذه المصيبة برأسي.

انظر يا أخي، سجلت الحسابات كلها هنا على الدفتر، فمن أجل الحصول على ألفي ليرة صرفت تماماً ثلاثة آلاف وأربعمئة وعشرين ليرة وكسور، وبما أني لم أدفع هذا المبلغ كله دفعة واحدة لذلك لا يتراءى لعيني. اليوم ثلاث ليرات، وغداً خمسين ليرة، وهكذا تجمَّع المبلغ المصروف ووصل لهذا الرقم. وعندما نستلم الألفي ليرة ستنفعنا في عمل ما. ولكي تفهمها أكثر، إن ذلك أشبه بجمع حساب مالي في مصرف، إذ تصرف ثلاثة أو أربعة آلاف ليرة بالليرتين والثلاثة، وتحصل في النهاية على ألفي ليرة دفعة واحدة. ويختلف عن جمع المال في المصرف في أنك تدفع أكثر وتحصل على مبلغ أقل إنما دفعة واحدة.

بلا كثرة كلام يا أخي. فيما كنا نجري هكذا وراء الألفي ليرة، كانت قد مضت سنتان دون أن نشعر بهما. فمن منافع أعمال الدولة أن الانسان لا يشعر كيف مضى عمره. ففيما تروح وتجيء من طاولة إلى طاولة، ومن دائرة إلى دائرة، ومن باب إلى باب، تنظر فتفاجأ بأن السنين قد مرت وانقضت. أي أنك تنسى هموم الحياة. فلو كانت للإنسان ثلاث معاملات في دوائر الدولة، فإنه لا يعرف أبداً كيف مر العمر وانقضى.

سلخنا هذه المعاملة وأوصلناها إلى نهايتها، ونحن نقول اليوم سنقبض وغداً سنقبض.. ذهبت بعد ظهر هذا اليوم إلى الدائرة التي كان يعمل فيها عمي المتوفى، وفور حصولي من هناك على الوثيقة سوف أذهب إلى المصرف وأسحب مبلغ الألفي ليرة.

قال الموظف الذي سيضع التوقيع الأخير على الورقة الأخيرة:

ـ لقد أغفلوا كتابة رقم الاضبارة الخاص على التقرير المرفق.

ـ أرجوك ياسيدي، لقد كتبت على أوراقنا هذه أرقام كثيرة، ولا يضر عدم وجود ذلك الرقم الذي ذكرتموه..

ـ أنا لامانع لدي، لكنهم لا يسلمونكم المبلغ إذا لم يكن رقم الإضبارة الخاص موجوداً، أتنم أدرى.

ـ ماذا سنفعل؟

ـ ستذهب وتحصل على الرقم.

المكان الذي سأحصل منه على الرقم يبعد مسيرة ساعة. فقلت:

ـ حسناً، إذن سأحضره غداً.

طبعاً، ليكن متأخراً، خير من أن يكون مرهِقاً، لقد انتظرنا سنتين على كل حال، فلننتظر يوماً آخر.

قال الموظف أولاً:

ـ طيب.

ثم قلب الأوراق وقال:

ـ لايمكن، أنتم مضطرون لقبض المبلغ اليوم.

ـ لماذا؟ أليس المبلغ من حقنا؟ نقبضه عندما نشاء.

ـ إذا لم تقبضوا المبلغ اليوم، يصعب عليكم قبضه فيما بعد.

ـ لماذا؟

ـ لأنه يدخل في الديون.

فإن كان لك مبلغ لدى الدولة ودخل في الديون، فإن إخراجه من هناك ثانية يتطلب عمر انسانين أو ثلاثة.

قال الموظف الطيب:

ـ أنا علي أن أوضح لكم، إن قبضتم مبلغكم من الآن وحتى الساعة الخامسة موعد إغلاق المصرف، كان به.. وإلا إن لم تنجزوا معاملتكم اليوم، فإن المبلغ يدخل في الديون.

ـ هل يعني أنه يحترق؟

ـ لو احترق لكان أفضل، فأنت على الأقل تفقد أملك منه، إن ذلك أسوأ من أن يحترق، فإن لم يكن لديك عمل تابع المعاملة وانتظر.

وقد مرَّ ذلك على رأس الموظف نفسه، فهو منذ أربع سنوات مازال يتابع معاملة استرداد مبلغ من المال له دخل في الديون.

لا يجوز إضاعة دقيقة واحدة. فالساعة الآن الثانية والنصف وعلي أن أحصل على الرقم الخاص بالاضبارة قبل الساعة الخامسة. قفزت فوراً إلى سيارة وذهبت إلى تلك الدائرة. كنت أعرف الموظف الذي كان عليه أن يعطيني الرقم، والحقيقة كان يخطر ببالي أن أعنفه بسبب نسيانه كتابة الرقم الخاص بالاضبارة، أما كان الأجدر به أن ينجز عمله بشكل تام ولا يتعبني هكذا؟ كنت أفكر بيني وبين نفسي بما سأقوله للموظف.

دخلت من باب الدائرة راكضاً والمعاملة بيدي، كانت الغرفة التي يعمل فيها الموظف في طابق القبو. نزلت السلالم. الموظف الذي أبحث عنه ليس موجوداً. كان في الغرفة دوماً أربعة أو خمسة موظفين يعملون، أما في ذلك اليوم فكانت هناك موظفة فقط. شرحت لها الموضوع فقالت:

ـ موضوعكم عند ابراهام بيك.

ـ وأين ابراهام بيك؟

ـ لا أعرف. اسألوا عنه.

انتظرت فترة، ثم سألت الآذن، فسألني:

ـ أي ابراهام بيك؟

ـ إنه يعمل على هذه الطاولة.

ـ ها، أهو ابراهام بيك ذاك؟ اسألوا عنه في قلم التوزيعات فقد ذهب إلى هناك.

ـ وأين قلم التوزيعات؟

ـ في هذا الطرف.. في نهاية الممر..

ممر طويل.. بدأت أركض، ليست هناك كتابة على الأبواب، بل هناك أرقام، فأيها سيكون؟ ممر طويل عريض أصم بأربع زوايا في بناية، وفيما كنت أجري فيه أضعت وجهتي. ومررت أربع مرات من أمام الغرفة التي دخلتها أولاً. ابراهام بيك لم يعد بعد. سألت واحداً بهيئة آذن:

ـ أين قلم التوزيعات؟

ـ أي توزيعات؟

ـ كم توزيعات توجد هنا؟

ـ لدينا توزيعات كثيرة.

ـ أين أقربها؟

ـ هي ذي هناك. ادخل إلى جهة اليسار، الباب الثاني.

دخلت حيث قال، وإذ به المرحاض. لا بأس، إذ استرحت قليلاً وخرجت. سألت واحداً كان يزر أزرار بنطاله، فأجاب:

ـ الباب المقابل..

دخلت، فرأيت موظفاً كبيراً في السن بنظارتين، فسألته:

ـ هل أنتم موظف التوزيعات؟

ـ ماذا تريدون؟

ـ قيل لي أن ابراهام بيك جاء إلى هنا..

ـ أي ابراهام بيك؟

ـ هناك، يعمل في القيود..

ـ لا أعرف، أنا لا أعمل بالتوزيعات، التوزيعات عمل رضا بيك.

ـ وأين هو؟

ـ عند السيدة آيسل.

ـ وأين السيدة آيسل؟

ـ في الآلة الكاتبة في القسم الثاني.

ـ وأين القسم الثاني؟

ـ أي ي ي، مابك لا تعرف شيئاً أبداً ياولدي، اصعد إلى الطابق الثالث!

بلغت الساعة الثالثة والنصف، صعدت السلالم كالريح. واصطدمت بامرأة بدينة كانت تنزل السلالم فأطحت بها، ومن يهتم بالمرأة..

والطابق الثالث مثل طابق القبو ممر أصم بأربع زوايا. وبعد عدة جولات قطعت فيها الممر جرياً مثل حصان سباق، اهتديت بعون الله إلى القسم الثاني.

- إني أسأل عن السيدة آيسل.

فتمتمت امرأة كانت تسوي حمرة شفاهها أمام الآلة الكاتبة:

- لكم يبحثون كثيراً عن آيسل هذه..

- أنا لا أبحث عن السيدة آيسل..

- إنكم تسألون عنها..

- ابراهام بيك ذهب عند رضا بيك في التوزيعات. ورضا بك ذهب عند السيدة آيسل.

- آيسل عند رئيس القسم..

- وأين رئيس القسم؟

- في الطابق العلوي.

هيا إلى الطابق العلوي.. رحت أتصبب عرقاً من كثرة دوراني في الممرات، ومن صعودي ونزولي السلالم، وكنت أسأل كل من أصادفه أمامي عن رئيس القسم.. لا أحد يعرفه. أخيراً قال لي رجل:

- أي رئيس قسم؟

- رئيس القسم الذي في هذا الطابق.

ـ في هذا الطابق رؤساء أقسام كثيرون جداً ياولدي.. فإذا فتحت أي غرفة يفر من داخلها أربعة أو خمسة رؤساء أقسام.

ـ إنني أبحث عن رئيس القسم الذي ذهبت إليه السيدة آيسل.

ـ انظر في القسم الثاني.. فإن لم يكن هناك ابحث في باقي الأقسام.

ـ وأين القسم الثاني؟

ـ في الغرفة رقم ست وأربعين.

ماعادت عيناي تميزان الأرقام من شدة تعبي، فدخلت الغرفة رقم أربع وستين على أنها ست وأربعين، هناك أيضاً يوجد رئيس قسم.

ـ أين رئيس القسم ياسيدي؟

ـ علي بيك؟ لقد نزل إلى المحاسبة.

ـ أين المحاسبة؟

ـ في الطابق الأسفل.

نزلت إلى الطابق الأسفل، قلبي يخفق بشدة، وبعد دوران وجري في الممرات عثرت على المحاسبة. السيد المحاسب ذهب لعند مدير الدائرة. ومدير الدائرة في الطابق السفلي. نزلت إلى الطابق السفلي واهتديت إلى غرفة مدير الدائرة. لكني لم أستطع دخول الغرفة، فقد كان عرقي يتصبب ويسيل بغزارة، كما كان نَفَسي على وشك أن ينقطع. تهالكت على مقعد خشبي في الممر أمام

باب المدير. وكان يجلس بجانبي رجل مسن حالته أسوأ من حالتي، إذ كان يضغط بيده على قلبه وهو يئن. فقلت له:

- معافى يا والدي.

- هل تعرف أين غرفة المعاون الأول ياولدي؟

- لا. هل تبحثون عنه؟

- لا أبحث عنه، ولكن إن وجدته.. وأنتم عمن تبحثون؟

- عن المحاسب.

- إذن فمعاملتكم أيضاً هناك..

- لا. أبحث عن المحاسب لأعرف منه أين أجد رئيس القسم علي بيك، ومن علي بيك سأعرف أين أجد السيدة آيسل..

- وماذا ستفعل بالسيدة آيسل؟..

- ماذا سأفعل بها؟ لاشيء.. سأسألها عن موظف التوزيعات رضا بيك. فأبراهام بيك الذي أبحث عنه موجود عنده.

- أواه، أواه.. أنت مازلت في بداية الطريق ياولدي.

- لماذا؟ إذا عثرت على مدير الدائرة فإن عملي ينجز، يكفي أن أعثر على مدير الدائرة.

- الله يهوِّن عليك!

دخلت الغرفة وسألت عن مدير الدائرة فقالوا:

ـ إنه عند مدير الشعبة..

الله الله!.. هل هؤلاء جميعاً عند بعض؟ وهل هناك غرفة تتسع لمثل هذا الازدحام؟ مدير الشعبة في الطابق الخامس. هيا إلى الطابق الخامس. يكاد يغمى علي، والساعة تجاوزت الرابعة. لكن أمري صار سهلاً، فما أن أجد مدير الشعبة يصبح الباقون مثل خيط جورب منسول. وهناك ستة مدراء شعب! وفيما كنت أدور وأجول في الممرات بحثاً عن مدير الشعبة كان هناك من يسألني أيضاً:

ـ أين رئاسة الخدمة الاجتماعية؟

ـ هل رأيتم السيد المعاون؟

ـ هل تعرفون أين مكتب التدقيق؟

ياعالم، من أين لي أن أعرف؟ والنتيجة يا أخي، بعد بحث وتفتيش عرفت أين يوجد أحد مدراء الشعب. لقد ذهب لعند السيد المعاون الأول.

ـ أين السيد المعاون الأول؟

ـ لا أعرف، انتظر قليلاً، قد يعود إلى غرفته.

وقفت أنتظر أمام الباب. آه لو رأيت تلك الممرات، يا للازدحام! من يتراكضون في هذا الاتجاه، ومن يتراكضون في ذاك الاتجاه، التراكض مستمر، وكلٌّ يسأل عن مكان فلان، أو عند من ذهب فلان، ومن يصطدم، ومن يقع، ومن

يتدحرج، لا أراك الله.. انتظرت السيد المعاون الأول خمس عشرة دقيقة ظناً مني أنه ذهب إلى المرحاض. ثم علمت أنه عند المدير المعاون. المدير المعاون في الطابق الثاني. هيا اركض إلى هناك.. تشعبت الأمور واختلطت بحيث اضطررت إلى تدوين أسمائهم جميعاً وبالتسلسل على دفتر كي لا أخلط بين مَنْ عند مَنْ. طبعاً.. فإن وجدت أحد الذين أبحث عنهم ثم نسيت من هو الثالث الذي أبحث عنه.. إذا انقطعت السلسلة فمن الصعب أن أجد ابراهام بيك.

تناثر الناس المتعبون على المقاعد في الممرات. منهم من يتحدث، ومنهم من يرتاح، ومنهم من يغفو. ثم يقومون ثانية للجري والبحث. لم أجد لي مكاناً للجلوس فاستندت إلى الحائط. وكان بجانبي شخصان جلسا القرفصاء يلهثان. قال أحدهما للآخر:

ـ ماشاء الله، انظر لهؤلاء الناس ياسيدي، ما أكثر العمل الذي تؤديه هذه الدائرة..

أجابه الآخر:

ـ ولك يارفيق هؤلاء يتراكضون بحثاً عمن وعند من هو، ولو عثروا على من يبحثون عنه عند ذلك سيكون العمل. هل جئت الآن إلى هنا؟

ـ موضوعي سهل.. فأنا أبحث عن المعتمد، وإن وجدته ستحل أموري تماماً.

عثرت على غرفة أحد المدراء المعاونين، ولسوء حظي يا أخـي، ذهـب هـو أيضاً عند المدير العام! ياعالم هل يعقد هؤلاء اجتماعاً؟ ياله من يوم تواعدوا فيه.

أركض لهناك، أركض لهنا، أنزل لتحت، أصعد لفوق، علمت أيـن المديـر العام. لقد ذهب إلى المباراة! ولشدة ارتباكي سألت:

ـ أين المباراة؟ في أي طابق هي؟

ـ وأين تكون المباراة؟ إنها في الملعب..

ـ أواه!.. عـدت ثانيـة أسـأل عـن أبراهـام بيـك في غرفتـه فغضــب الآذن ونهرني قائلاً:

ـ قلنا لك إنه في التوزيعات..

هل بقي أمل غير أن أذهب إلى الملعب وأبحث عن السيد المدير العام؟

آه لو رأيت المدير العام، الباقون أمرهـم سـهل. فكلـهم مجتمعـون عنـده في الملعب يتباحثون في أمـور العمـل. وإذا لم تنجـز المعاملـة اليـوم فـإن ألفـي ليرتنـا ستحترق.

قفزت إلى سيارة، وأسرعت إلى الملعب. اشتريت بطاقة من السـوق السـوداء ودخلت. الله لا يبلي أحداً بذلك يا أخي، فعقل الانسان قد يضيـع في مثـل هـذه الحالات. الملعب مكدس بالناس، وكلٌّ يصرخ:

ـ كو و و ل..

ـ يو هو و و ..

ـ هو و و ست ..

ـ ولك يا بقر..

ولحيرتي وارتباكي رحت أنا أيضاً أصرخ:

ـ سيادة المد يـ يـ يـر، سيادة المد يـ يـ يـر !..

إنه الارتباك هكذا يفعل.. أمسك شرطي بذراعي وسألني:

ـ أي مدير ياهذا؟ أتبحث عن مدير الملعب؟ انظر المدراء كلهم هناك في المقابل.. أولئك يجلسون هناك في منصة الشرف.

شققت طريقي بصعوبة بين الزحام واتجهت إلى هناك، سألت عن المدير الذي أبحث عنه.. دلُّوني عليه.. كان واقفاً على قدميه، واضعاً يديه على فمه وهو يصرخ.. لكني لم أفهم ماذا كان يقول.

ـ سيدي..

لم يكترث بي.

ـ أتلتفتون قليلاً؟..

لكزته.. لم يعبأ. وقفت فترة أنتظر بجانبه. انتهى الشوط الأول وبدأت فترة الاستراحة بين الشوطين فقلت:

ـ سيدي.

ـ ماذا هناك؟

ـ عفواً سيدي، أنا ..

أخرجت دفتري من جيبي وبدأت أقرأ ملاحظاتي:

ـ إني أبحث عن السيد المعاون، قيل لي إنه عندكم..

ـ ماذا تريد منه؟

ـ كنت سأسأله عن السيد المعاون الأول، فقد ذهب لعنده..

ـ وماذا تريد من المعاون الأول؟

ـ لاشيء.. السيد المعاون عنده، سأعثر على السيد المعاون وأسأله عن مدير الشعبة..

بعدها فقدت وعيي ولا أذكر أبداً ماذا قلت. ثبت إلى رشدي في مخفر الشرطة. وهناك أفهمتهم الموضوع بحذافيره. فقال لي رئيس المخفر الطيب:

ـ أريد أن أقدم لك معروفاً، على أن يبقى بيننا، إن شئتَ أرسلك إلى مشفى الأمراض العقلية فتمضي هناك بضعة أيام وتخرج، وتتخلص من هذه المعاملة. أو إن شئتَ أرسلك إلى المحكمة.

سوف أكتسب لقب مجنون لو ذهبت إلى مشفى الأمراض العقلية لذلك قلت:

ـ أُفضِّل أن ترسلني إلى المحكمة..

أنا متهم بتحقير موظف حكومي، ونحن الآن في طريقنا إلى المختار، سوف نحصل منه على سند إقامة، ليتم إخلاء سبيلي. أما ألفا ليرتنا فقد دخلت في الديون. ماذا نفعل؟ ليست من نصيبنا.

خادمكم عبدكم

٧

لم أعجِب حماي فقط في هذا البيت. أما البقية فكانوا يحبونني جميعاً. أنا متزوج منذ ثماني سنوات، وزوجتي تنظر في عيني وتناديني ياروحي، ياروح روحي.. كان لي في البيت اسمان: << روحي، روح روحي..>>.

جاء أحد أصدقائي إلى البيت مرة يسأل عني، فقال الولد الذي استأجرناه حديثاً والذي فتح الباب:

ـ لا يوجد أحد هنا اسمه أوزَرْ.

فتساءل صديقي:

ـ أليس هذا منزل أوزَرْ بيك ياروحي؟ أم أنه انتقل من هنا؟

فرد الولد قائلاً:

ـ لا، هذا منزل روحي بيك.

إذ كان الولد الذي يسمع زوجتي تناديني كل دقيقة << روحي، روح روحي >> يظن أن اسمي روحي بيك. حماتي أطال الله عمرها كانت تحبني جداً أيضاً، كانت تشدد على الأحرف الأخيرة وتناديني<<صهري!>> الخدم، الغلمان، قطط البيت الثمانية، والكلاب الثلاثة، وجميع الأقارب الذين تأتي أهميتهم بعد هذه المخلوقات الجميلة كانوا يحبونني، بل يذوبون حُبًّاً بي.

جئت إلى هذا البيت صهر بيت، وأنا أعرف أن ما قمت به كان تضحية كبرى لم يعرف التاريخ لها مثيلاً، وبطولة خارقة لا توصف، فلو شربت زوجتي من << ماء الحياة >> التي يقال أن شاربها لا يموت، لو شربت من ذلك الماء مثل جمل يتلظى عطشاً وجففت نبع ماء الحياة وعاشت مادامت هذه الدنيا، لما استطاعت العثور على زوج، لكني ولأنني شاب مرهف الحس، ذو قلب عامر بالحنان، وأحب فعل الخير، قررت أن أتزوج وأسعد هذه الأنثى المسكينة التي تشبه أي مخلوق عدا الإنسان. وإني وإن كنت أبدو للآخرين شخصاً جيداً، إلا أنه بإمكاني أن أوضح لكم الحقيقة، وهي أني شخص سافل يستحق الحرق في نار جهنم، فقد أغويت كثيراً من الفتيات الشابات والنساء المتزوجات، منذ كنت في الرابعة عشرة من عمري، فكم من البنات يئسن من حياتهن، وكم من النساء هُدمتْ بيوتهن بسببي. لم أفعل ذلك كله بإرادتي، فأنا مذنب بالولادة. إذ هناك نظريات في علم الاجتماع تقول بوجود وحش بالولادة، وسارق بالولادة، وقاتل بالولادة، وهكذا كنت أنا مسكيناً غاوياً بالولادة، كنت شاباً تعجب به أنواع

النساء كافة. طويل القامة، عريض المنكبين، أسمر اللون، أخضر العينين، أسود الشعر. وبعد الثالثة والعشرين من عمري غزا الشَّيب فوديَّ.

نموذج رجل يدخل في أحلام تسعين بالمئة على الأقل من النساء منذ بداية التاريخ حتى اليوم. هكذا كنت رجلاً تعيساً محكوماً عليه أن يكون غاوياً بالولادة. فالغواية كانت مكتوبي، ولم أكن أبذل جهداً خاصاً لإغواء النساء. وإذا أضفتم إلى كمالي الرجالي الذي عدَّدته غفلتي التي لا مثيل لها أدركتم لماذا كانت النساء لا تنزل عن كتفي. فكل امرأة أراها أو أقابلها كانت ترغب في أن أكون لها وحدها، فإذا أخذتني امرأة أخرى من يدها، كانت تعتبر نفسها قد خدعت، مع أنه لا يكون لي أي ذنب في ذلك. إذ كان جل ما أفعله أمام النساء أني كنت أرفع حاجبي الأيسر، وأنظر نظرات ناعسة من عينيَّ نصف المغمضتين، وأضغط عظام فكيَّ، وأنفث حلقات دخان سيجارتي من جانب شفتيَّ. أي أني لم أكن أعمل شيئاً سوى أن أتخذ دوراً ومظهراً رجولياً. ولكي لا تظهر غفلتي كنت أقلل من كلامي قدر المستطاع، ورغم ذلك سرعان ما كانت غفلتي تنكشف، فتذوب النساء بها وهنَّ يرددن << ياله من رجل ممازح خفيف الظل! >>.

رحت أعاني عذاب الضمير بسبب النساء اللواتي هدمتُ بيوتهن، والبنات اللواتي رميتُ بهنَّ إلى الهاوية. ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ فعدم إغواء النساء لم يكن بيدي.. فليس بإمكاني تقصير قامتي، ولا تغيير لون عيني، والأسوأ من ذلك كله أني لا أستطيع الإقلاع عن غفلتي، أما صوتي الرجولي الخشن الأجش فكان يستحيل علي أن أجعله رقيقاً ناعماً.

فارق النوم عيني من شدة ما أعانيه من عذاب الضمير، فقررت أن أنتحر بدلاً من أن أسحق حياة الفتيات والنساء المسكينات. وعلى هذا وضعت خرطوم أنبوبة الغاز في فمي مثل نربيج نرجيلة وبدأت أمص الغاز وأغيب عن الوعي رويداً رويداً.

فتحت عيني في المشفى، فسألني رئيس الأطباء الطيب عن سبب محاولتي إزهاق روحي، فسردت له الأسباب وختمت قائلاً:

- سئمت من هدم البيوت، وماعدت أحتمل عذاب الضمير.

فقال الطبيب الطيب:

- يابني إن ذنبك ثقيل للغاية، وكبير للغاية، بحيث أن الموت لا يشكل عقاباً لك بل إنقاذاً لك. بل إن نار جهنم بالنسبة لك كالاستحمام بحليب الحمير. أنت يجب أن تعيش وأن تقاسي، وسوف أزوجك بفتاة بحيث تؤدي بزواجك كفّارة ما ارتكبته من آثام وذنوب.

وهكذا تزوجت بهذه الفتاة بوساطة ذلك الطبيب الطيب لأؤدي عقوبة ما ارتكبته من ذنوب. ودخلت كصهر بيت. كان حمويَ يساوي مئة مليونير على الأقل. وكان الأحياء جميعاً في البيت من الكلب حتى الطباخ يحبونني، بل ويضعوني تاجاً على رؤوسهم، إلاّ أن نجمي لم يتطابق مع نجم حميٍّ بشكل من الأشكال. مع أني كنت أراعي كافة قواعد الحياة الراقية. إذ كنت أقبل أيدي السيدات الزائرات وأطيل أظافر أصابع يدي وأطليها بالطلاء، وأستقبل كل

أسبوع من يأتي خصيصاً لتقليم وتسوية أظافر أصابع قدمي. وأتقعر في الكلام، وإن دار الحديث عن فان كوخ وجوجان كنت أشارك في الحديث ببضع كلمات. والأنكى أني كنت أدخل بين أحضان زوجتي كل ليلة مؤدياً بشرفي وناموسي دَيْن الزوجية المترتب عليَّ. لكن ذلك كله لم يكن يكفي حماي، فقد كان يصر على أن أعمل أي عمل. مع أني كنت أؤدي أصعب عمل على وجه هذه الأرض.

مات شقيق حميَّ منذ فترة فقلت في نفسي:

ـ يجب أن يعتبر حموي هذا قليلاً من موت شقيقه.. فإحدى رجليه في القبر هو أيضاً. وعندما يموت سوف تبقى ملايينه لابنته، أي سوف تبقى لي بالنتيجة. لماذا إذن هو يصر على أن أجد عملاً أعمله؟

إنه يرى أن الرجل يجب أن يؤمن بنفسه مصروف جيبه ومصروف بيته.

لكن زوجتي وحيدة أبيها، فلماذا أعمل؟

أنجزت مراسم الجنازة وذهبنا إلى المقبرة. كان هناك بين الزحام رجل يبكي بمرارة، يبكي بمرارة ويضرب رأسه على الحجارة، ويشد شعر رأسه. سألت بعض الأقارب << من هذا الرجل؟ >> .

لا أحد يعرفه. تقدم الرجل من حميَّ وهو يتلوَّى ويفرك بيديه، والدموع تنسكب من عينيه غزيرة، وقال بصوت تخنقه الشهقات:

ـ يسلم رأسكم ياسيدي.

فأجابه حموي متأثراً لحاله:

ـ ورأسكم ياسيدي.

لم يكن أحد ممن هناك يبكي ويتألم مثل هذا الرجل الذي قال:

ـ سيدي لقد كان المرحوم أعز صديق لي، لقد أمضينا طفولتنا وشبابنا سوية، آه.. آه! لو أني متُّ معه.. فأنا لا أستطيع العيش بعد الآن. الماء الذي كنا نشربه فقط كان يفترق! الحياة حرام علي بعد الآن.

نسي حمويَ حزنه وتأثره لوفاة شقيقه، وراح يواسي الرجل:

ـ ألهمنا الله جميعاً الصبر ياسيدي، ماذا نفعل؟ ما باليد حيلة هذه نهايتنا جميعاً، حفنة تراب..

لكن الرجل لم يهدأ، بل راح يجهش بالبكاء، والتف الآخرون حوله وهو ينتحب ويقول:

ـ أنا لا أستطيع العيش بدونه، يجب أن أموت، آه يا أخي، ياروحي..

كانت زوجة المتوفى وبناته وأولاده هناك أيضاً، فانشغلوا جميعاً بمواساة هذا الرجل وتهدئته. كذلك تجمَّع الإمام وقرَّاء القرآن وحفارو القبر حوله. كنا قد نسينا دفن الميت المسجى في التابوت، فقد رمى الرجل بنفسه على الأرض وهو يصيح:

ـ ادفنوني أنا أيضاً، ادفنوني إلى جانبه!

راح منهم مَنْ يرش وجهه بالماء، ومنهم مَنْ يمسح يديه وصدغيه بماء الكولونيا، وحلَّ أحدهم أزرار سترته وبنطاله وراح يدلكه، لكن ذلك كله لم ينفع، فقد انقلب الرجل إلى قطعة واحدة من حجر.

أنزلوا التابوت إلى القبر على عجل، وأهالوا فوقه التراب وملؤوا الحفرة، ثم نثروا الورود فوق الضريح، وحمل حمويَ الرجل المتحجر المتمدد على الأرض إلى سيارته، وجاء به إلى بيتنا، وأمر بالاعتناء به والاهتمام بصديق شقيقه الحميم لمدة أسبوع في بيتنا.

ومنذ ذلك اليوم صار الرجل يتردد على بيتنا باستمرار. وكان حموي يردد كلما رآه:

- آه ياربي، كم في الدنيا من أوفياء..

طلبني حموي يوماً إلى غرفته. وبسحنته المقلوبة دائماً قال:

- اسمع ياولدي، أنت لم تفلح في أي عمل أمَّنته لك، أعطيتك رأسمالاً لتعمل عملاً ما فبددته، والآن اتخذت قراراً جديداً بشأنك. قررت أن أجعلك معاوناً لجاهد بيك.

جاهد بيك هو ذاك الرجل الوفي صديق شقيق حميَّ.

جاهد بيك مدير لأحد مواقع العمل، وسوف أصبح معاوناً له، وسوف أقبض ألفاً وثلاثمئة ليرة شهرياً. لكن القصد لم يكن المال، بل كان القصد تدريبي وتعليمي، وسوف يقوم جاهد بيك بذلك.

كنت أفهم حماي. إذ كان يريد لي، أي للرجل الوحيد الذي سيترك ملايينه له، أن يتدرب ويتعلم كيفية استعمال هذه الملايين واستثمارها بشكل جيد. وهكذا صرت معاوناً لجاهد بيك.

لم يكن أحد في الدائرة يعرف اسم المدير جاهد بيك، فقد كان له لقبان يدوران على لسان الجميع. أحدهما << خادمكم >> والثاني<<عبدكم>>.. وكان الموظفون يسألون بعضهم عنه قائلين:

ـ هل جاء خادمكم؟

ـ هل عبدكم في غرفته؟

لم أعرف سبب تسميته خادمكم، عبدكم.. لكني تأقلمت مع الآخرين بحيث صرت عندما أحضر إلى الدائرة في التاسعة صباحاً أسأل الآذن:

ـ هل جاء << خادمكم >>؟

فيجيبني:

ـ لقد خرج للتفتيش قبل قليل.

وفي اليوم التالي جئت أبكر قليلاً وسألت الآذن:

ـ هل جاء << عبدكم >> ؟

ـ منذ مدة طويلة.. بل وخرج للتفتيش.

لم أكن ألحق بالسيد عبدكم مهما حضرت مبكـراً. فقـد كـان يحضـر قبلـي ويستقل سيارته ويخرج للتفتيش، بحيـث بـدأت أخجـل مـن نفسـي. فعيـب أن يحضر المعاون إلى الدائرة بعـد المديـر. ولكـن مـاذا أفعـل؟ لم أستطع مجاراتـه في الحضور المبكر. مع أن الدوام كان يبدأ في التاسعة. لم أر حتى ذلك اليوم رجلاً مجداً مثله.

مرَّ شهران هكذا. وفي مساء أحد الأيام جاء الآذن وقال:

ـ<< عبدكم >> يطلبكم.

ذهبت إليه فقال:

ـ لقد ترقيت، ونقلت إلى المركز، وسوف أجعلهم يعينوكم مديراً بدلاً عني، لذلك سوف أعلمكم كيف تعملون هنا، تعالوا غداً صباحاً باكراً جداً.

ذهبت صباح اليـوم التـالي إلى مقر العمـل في السـاعة الثامنـة. كـان السـيد خادمكم ينتظرني في سيارته. صعدت إلى جانبه. وفي الطريق راح يفـهمني بصـوت خفيض لا يسمعه السائق:

ـ سأعلمك اليوم سر النجاح في الحياة، فنحن تقدمنا في السن، لقـد جئنـا وها نحن ذاهبون. المستقبل لكم، والبلد ستترقى وتتقدم علـى أكتـافكم. انتبـه لمـا سوف أفعله اليوم. وعليك أن تفعله مثلي كل يوم من الآن فصـاعداً. إن فعلـت مـا أقوله لك فلا تخف، ولسوف تكون ناجحاً في الحياة دوماً. فأنا حتى لست قارئـاً وكاتباً. كنت مجـرد آذن، وتعلمـت القـراءة والكتابـة فيمـا بعـد، بـل واسـتطعت

بوسيلة ما تأمين وثيقة شهادة ثانوية. وبفضل طريقة اكتشفتها ترقيت في المراتب الوظيفية إلى أن وصلت إلى موقعي هذا.

وقفت السيارة أمام بيت كبير، فقال لي خادمكم:

ـ افتح عينيك وأذنيك جيداً! تعلَّم ما سأقوله، واحفظ عباراتي، وانتبه لكل حركة من حركاتي.

ضغط جرس الباب، وقال لي:

ـ أحكم أزرار سترتك!

أحكمت أزرار سترتي، فُتح الباب، فقال للخادمة التي فتحت الباب:

ـ أرجو مقابلة شكري بيك.

وبعد قليل أقبل رجل بلباس النوم. كان واضحاً أنه أفاق من نومه لتوه وجاء إلينا. قال بسحنة عابسة:

ـ ماذا هناك؟

انحنى خادمكم وهو يفرك بيديه وصار طابقين، وراح يتكلم مثل آلة مسجلة:

ـ خادمكم أزعج معاليكم ليقدم له فروض الطاعة والاحترام ياسيدي أطال الله في عمركم ياسيدي. دعواتنا لكم بالصحة والعافية ياسيدي. منذ مدة ونحن لا نتلقى أوامركم مما أوقعنا في حيرة ياسيدي. ماعدتم تشرفون دائرتنا، أنكون قد

أخطأنا تجاه سيدنا، أم قصَّرنا عن غير علم في تقديم الاحترامات الواجبة علينا لسيدنا؟ هذا ما حيَّرنا وأزعجنا ياسيدي. والله ياسيدي إني لأعتبر نفسي يتيماً عندما لا أتلقى توجيهاتكم السامية ـ كاد أن يبكي وتهدج صوته ـ أرجوكم ياسيدي لا تتركوا عبدكم يتيماً وحيداً. تفضلوا على خادمكم وزودوه بارشاداتكم الحكيمة بين فترة وأخرى.

حار الرجل الواقف بلباس النوم، وقال بجفاء:

ـ كل شيء جيد. الطرقات سوية، والكهرباء مضيئة.

وكان ينظر إلي بطرف عينه وهو يتكلم، فسارع عبدكم وعرَّفني إليه قائلاً:

ـ سيدي، وهذا خادمكم المعاون..

فقال الرجل:

ـ حسناً..

قال عبدكم أشياء أخرى، ثم غادرنا ذلك البيت. امتطينا السيارة التي وقفت بنا أمام بيت آخر. ضغط عبدكم جرس الباب، ثم كرَّر للرجل الذي فتح الباب ما قاله قبل قليل كلمة كلمة:

ـ خادمكم أزعج معاليكم ليقدم فروض الاحترام..

وبعد أن أنهى كلامه أشار إلي قائلاً:

ـ عبدكم المعاون..

تجولنا يومها وطفنا على ثلاثة عشر بيتاً حتى الظهيرة وكرَّر السيد خادمكم الكلام نفسه أمام كل باب، عدنا بعدها إلى الدائرة. وعندما صعدنا إلى مكتبه أبرز لي قائمة وقال:

ـ هي ذي قائمة بالبيوت التي يجب أن تزورها كل صباح. تطوف بالبيوت حتى الظهيرة. القائمة كبيرة، لا يصل الدور إلى البيت الواحد إلا كل خمس عشرة أو كل عشرين يوماً مرة. عملنا صعب. يجب بذل جهد كبير. لا تظنه عملاً سهلاً. يجب أن تكرر أقوالي بحذافيرها.

ـ لكني لا أحسن ذلك الكلام.

ـ إذن اكتب أقوالي على ورقة واحفظها.

وراح يتكلم وأنا أكتب << خادمكم، احتراماته.. >>

ـ عمل بعد الظهر أصعب. سوف نذهب الآن سوية وسترى! انتبه جيداً لما سأفعله!

صرت كلي عيوناً مراقبة، وآذاناً صاغية. كانت صحف ذلك اليوم كلها على طاولته. تناول الصحيفة التي في الأعلى وفتحها، لم ينظر إلى الصفحة الأولى ولا إلى الصفحة الأخيرة، ولم يبحث عن خبر ما. فقط كان يقرأ اعلانات الوفيات. وكلما قرأ اعلان وفاة كان يقول:

ـ لا عمل لنا هنا.

قرأ جميع اعلانات الوفيات في صحف ذلك اليوم. واختار من بينها اعلاناً واحداً وسجل ملاحظات على دفتر جيبه، ثم اتصل هاتفياً بعدة أماكن، وتكلم وجمع معلومات عن المتوفى الذي ستتم مراسم جنازته في ذلك اليوم. سجل هذه المعلومات أيضاً على دفتر جيبه وقال لي:

ـ لنلتقِ في الساعة الثالثة.

استقلينا السيارة في الثالثة، وفي الطريق قالي لي:

ـ والآن سوف تتعلم واجبك لما بعد ظهر كل يوم. انتبه جيداً لكل ما سأفعله..

ذهبنا إلى المقبرة. وهناك سأل السيد خادمكم واستفسر من الموجودين عن ابن المتوفى، وعرفه، وبعد قليل حشر نفسه بجانب الشاب..

أخرج منديله وراح يجهش بالبكاء، وبعد قليل قال للشاب:

ـ يسلم رأسكم.

فأجابه الشاب ابن المتوفى:

ـ ورأسكم ياسيدي.

ـ كان المرحوم أعز صديق لي، لقد قضينا طفولتنا وشبابنا سوية. آه لا تعرفون كم كنت أحبه، كان أحسن أصدقائي، كنت أحبه مثل روحي.

كان يبكي بكاء جعل المزدحمين هناك يتركون الجنازة جانباً ويلتفون حول السيد خادمكم محاولين مواساته ناسين الجنازة. وبالرغم من معرفتي بتمثيلية السيد خادمكم، وبالرغم من أني رأيتها وشاهدتها سابقاً في جنازة شقيق حميٍّ، إلا أن بكاءه بحرقة ومن الأعماق جعلني أفقد تحملي وأجهش بالبكاء أنا أيضاً. كما بكى الموجودون هناك جميعاً، ولكن لا على المتوفى بل على السيد خادمكم. ففيما كان السيد عبدكم يبكي بشهقات وزفرات رمى بنفسه على الأرض فوقع مغمياً عليه، وصار قطعة واحدة. دفنوا الميت على عجل، ثم رفعوا السيد عبدكم عن الأرض ووضعوه في سيارة وذهبوا به.

غادر السيد خادمكم وذهب إلى مكان العمل الجديد الذي ترقى ونقل إليه. واستطعت أن أحل محله مديراً ليوم واحد فقط. ففي أول صباح ركبت فيه السيارة وخرجت إلى التفتيش حدث أني ذهبت إلى باب أحد البيوت الموجودة في القائمة التي أعطاني إياها. وأسمعت الرجل الذي فتح الباب كل الكلام الذي حفظته عن السيد خادمكم. ولما انتهيت من ذلك قال الرجل:

ـ الله يعطيك، إلى الباب الأسفل!

ـ أنا لست متسولاً.

ـ أعرف، لا بد أنكم المدير الجديد، مع ذلك إلى الباب الأسفل لأن <<صاحب الدولة >> الذي ستقدم له << فروض الاحترام >> يسكن هناك.

لقد أخطأت الباب! أما بعد الظهر فقد حدث ما هو أسوأ. طبق الأصل كما تعلمت من السيد خادمكم، اخترت من الصحف اعلان وفاة وذهبت إلى المقبرة التي سيتم فيها دفن الميت. وهناك بدأت أنتحب وأقول:

ـ آه.. كنت أحبه أكثر من روحي. لا أستطيع العيش بدونه بعد الآن. ادفنوني أنا أيضاً إلى جانبه!

هجم عليَّ رجل في البداية، وراح يضربني ويركلني، ثم هجم الموجودون جميعاً عليَّ وأوسعوني ضرباً ومدَّدوني على الأرض.

عرفت الأمر فيما بعد. إذ كان اسم المتوفى حكمت، وقد ظننته رجلاً، وإذ به امرأة. وفيما كنت واقفاً على القبر أنتحب وأقول:

ـ لا أستطيع العيش بدونه بعد الآن. ادفنوني أنا أيضاً إلى جانبه! كنت أحبه أكثر من روحي!

ولأنها كانت امرأة لعوباً ذات حياة صاخبة جداً فقد جنَّ جنون زوجها فهجم عليَّ مع أقاربها الذين قدموا لحضور مراسم دفنها وأوسعوني ضرباً.

لم ينته الأمر عند هذا الحد. فزوجتي التي تأكدت من خيانتي لها مع امرأة أخرى، بأقوالي التي رددتها عند القبر والثابتة بشهادة الشهود، حصلت من المحكمة على قرار بالطلاق.

KMH

واخ ! واخ ! واخ

٨

يعمل رشيد النسَّاج في أحد خانات حي محمود باشا، في غرفة في الطابق الأسفل من طابق القبو حيث توجد ثلاثة مناسج، يعمل رشيد على إحداها منذ أربع سنوات.

قد يرتدي الإنسان لباساً واحداً على مدى عشر سنوات إن اضطر لذلك. وقد يبلل الخبز بالماء ويأكله ليسكت جوعه إن اضطر لذلك. لكن إيجار البيت كان هو الذي يحني ظهر رشيد ويثنيه. لذلك راح منذ عشر سنوات يعاند آلام الروماتيزم ويعمل أربع عشر ساعة في اليوم دون أن يرتاح في أيام العطل حتى جمع قليلاً من المال. فاشترى صندوقي شاحنتين كبيرتين، حملهما على عربة يجرها حصانين، وجاء بهما إلى خلف تلة منبسطة كان قد حددها سابقاً بجوار ساحة السهم.

انقطع عن عمله أربعة أيام وراح يعمل هنا، وفي اليوم الخامس كان قد أقام بيته غير المرخص والمؤلف من غرفتين. نقل متاعه ثم أحضر زوجته وأمه وابنه ذا الثلاث سنوات. وهكذا تخلص من الجرجرة في بيوت الإيجار، ومن سماع كلام أصحاب البيوت وتحمل روائح أفواههم. كان العذر الوحيد لبيته الجديد أنه بعيد عن مكان عمله. فما عاد الآن يعمل أكثر من ثماني ساعات، إذ صار يغادر عمله باكراً ليعمل على إتمام وإكمال نواقص بيته. فما زال بيتهم بلا مرحاض حتى الآن، وعوضاً عن المرحاض كانوا يختارون أنسب مكان في الأرجاء الفسيحة الخالية .

وبعد خمسة عشر يوماً تخلصوا من مرحاض الهواء الطلق هذا، إذ أقام رشيد على بعد خمسين خطوة من بيته مرحاضاً مكوناً من أربعة جدران وسقف من الصفيح العتيق. ثم بنى مطبخاً من اللبن ملاصقاً لإحدى الغرف، وغطى سطح بيته بالصاج المخطط، وبالورق المطلي بالزفت، بل إنه بنى خُمّاً واشترى أربع دجاجات. لكن سعادته هذه استمرت شهرين فقط. فبعد شهرين من انتقالهم إلى البيت أوقع الروماتيزم رشيداً طريح الفراش، إذ صارت عظام أصابعه تتلوى مثل قشور برتقال تحترق فوق مدفأة، وبعد مدة تغيرت أشكال هذه العظام الملتوية تماماً بحيث ما عاد رشيد قادراً على مغادرة الفراش.

لم تتحمل زوجته هذا الفقر والحرمان، فعملت في معمل للجوارب أولاً. ثم هربت من البيت، وبعد فترة خطفت ابنها البالغ من العمر ثلاث سنوات وهربت به. وهكذا بقي طريح الفراش رشيد وأمه العجوز وحيدين في هذا البيت غير

المرخص.. أفرغت السيدة زهرة أم رشيد إحدى الغرفتين وأجرتها بخمسين ليرة.. وسيعيش الولد وأمه بالخمسين ليرة هذه.

كانت المستأجرة امرأة عجوزاً وحفيدها. إذ كان ابنها قد خرج من البيت ذات صباح ولم يعد. وبعد ابنها هربت كنتها إلى مكان غير معروف. وبقيت العجوز مع حفيدها. وكانت الكنة تتردد عليهما بين الفينة والفينة وتعطي حماتها بعض النقود من أجل ابنها، ويبدو أن الكنة الشابة لم تكن تعمل عملاً مرغوباً.

عاشت المستأجرة وصاحبة البيت في وئام مدة شهرين، وفي الشهر الثالث دب الخلاف بينهما. إذ راحت المستأجرة تماطل في دفع الإيجار وهي تقول اليوم وغداً. مع أن أصحاب البيت الذين لا مورد آخر لهم لا يقدرون على الانتظار يوماً واحداً.

ولما تأخر دفع الإيجار شهراً ونصف قالت صاحبة البيت للمستأجرة:

- ياسيدة هاجر يا أختي ، لا أريد منك عشر ليرات أجرة ، اخرجي من البيت يكفي..

فقالت المستأجرة:

- إلى أين أخرج يا سيدة زهرة يا أختي ؟.

ثم أضافت بحرقة:

- لو لم يكن هذا الطفل ..

أخيراً وصلتا إلى المحاكم. فأخرجت السيدة هاجر وحفيدها من البيت بالطرق الإجرائية، ولقاء الأجرة غير المدفوعة تم الحجز على سرير حديدي برؤوس صفراء، وعلى طاولة خشبية، ومرآة بإطار، وسلمت لأصحاب البيت << كشخص ثالث أمين >>.

حملت السيدة هاجر حاجياتها المرمية أمام البيت واحدة واحدة كما تحمل القطة صغارها. سحبتها ونقلتها وكدستها على جانب الطريق ثم حملت حفيدها الباكي بين أحضانها وصعدت على صرّة وجلسة فوقها، وراحت تبكي هي وحفيدها.

منقل من الصاج، بوري منقل مقلوب، مدفأة عتيقة من الصاج، خزانة شعرية، وغير ذلك من سقط المتاع، ووسط هذه الكومة امرأة عجوز وطفل في حضنها ..

مرَّ رجلان وهما يتحادثان فوقفا أمام كومة الأشياء هذه. تساءل أحد الرجلين.

- ما هذا يا خالة، ماذا حدث ؟

قالت العجوز وهي تمسح دموعها بغطاء رأسها:

- أخرجونا من البيت.

- لماذا ؟

- لم ندفع الأجرة..

التفت الرجل إلى صديقه وقال:

- هو هو.. كم من عديمي الشرف يوجد في هذه الدنيا يا أخي..

فرد صديقه:

- واخ، واخ، واخ !..

- يعني هل تصل قلة الحياء لهذا الحد ؟.. واخ، واخ، واخ !..

ابتعد الرجلان وهما يهزان برأسيهما ذات اليمين وذات الشمال، ويصدران من بين أسنانهما أصواتاً << تسك، تسك، تسك >>.، ويرددان << واخ، واخ، واخ !..>>

أقبل ثلاثة أشخاص. امرأة ورجل مسن وشاب.. وقفوا عند كومة المتاع، فسألت المرأة القادمة السيدة هاجر:

- ماذا حدث يا خالة ؟

شرحت المرأة العجوز ما جرى لها. فقال الشاب:

- آه ياعديمي الشرف، لم تبقَ لدى الناس رحمة أبداً.

قال الرجل:

- واخ، واخ، واخ..!

قالت المرأة:

- واخ، واخ، واخ..!

مشى الثلاثة مغادرين يرددون << واخ، واخ، واخ !..>>

كانت سيارة رمادية خاصة قادمة، وعندما مرّت من أمام كومة الأمتعة سُمعت أصوات فراملها. لم تتمكن السيارة من التوقف إلا على بعد خمسين متراً. حيث ترجل منها شاب وبرفقته امرأة شابة يتطاير شعرها الأشقر في الهواء.. سألت المرأة الشابة:

- ماذا حدث يا خالة ؟

شرحت السيدة هاجر ما جرى لها لهذه المرأة الشابة أيضاً، فقالت الشابة:

- واخ، واخ، واخ..!

دخل الشاب بذراع المرأة ذات الشعر الأشقر وقال:

- أي قلة وجدان هذه يا ربي؟..

قالت السيدة هاجر:

- لكننا لم ندفع الأجرة.

فأجابت المرأة الشابة:

- هم لم ينفجروا على أية حال.. هـل يرمـى الإنسـان في قارعـة الطريـق؟ وهذا الطفل؟.. واخ، واخ، واخ..!

صعد الشاب والشابة إلى السيارة. جلس الشاب وراء المقود وهو يـهز برأسـه ويردد:

- واخ، واخ، واخ..!

وغابت السيارة في الطريق.

وكان من جملة المـارة الذيـن شـاهدوا العجـوز وحفيدهـا في حضنـها ثلاثـة أشخاص اتصلوا هاتفياً بمختلف الصحف شـارحين هـذه الحادثـة المؤلـة. فأسـرع المصورون الصحفيون بـالحضور، والتقطـوا صـوراً للعجـوز المرميـة في الطريـق مـع حفيدها وحاجياتها لينشروها في صحفهم التي ستصدر في اليوم التالي، ثم غـادروا متأثرين أشد التأثر وهم يرددون واخ، واخ، واخ..!

أقبل المساء وحل الظلام فسمع صوت نسائي ينادي:

- سيدة هاجر، سيدة هاجر!..

اقترب الصوت النسائي في الظلام قائلاً:

- هذه أنا يا..

كانت السيدة زهرة صاحبة البيت.. فصرخت بها السيدة هاجر بصوت غليظ وجاف:

– ماذا هناك ؟ ماذا تريدين ؟ ها قد رميت بنا إلى قارعة الطريق، وحجزت حاجياتنا، ماذا تريدين أيضاً ؟

فقالت السيدة زهرة متوسلة:

– ما بك يا أخت، وكأننا فعلنا ذلك بإرادتنا.. ألا تعرفين حالنا ياأخت؟ هل نريد أن يحدث هذا أبداً ؟ لكن ماذا نفعل ؟ فمن ضنك العيش ومن ضيق ذات اليد حرنا والله.. هيا تعالي هيا.

– إلى أين سآتي ؟

– إلى البيت.. إلى بيتك.. هيا هيا.. لا تؤاخذيني يا أخت هاجر. هيا..

– آ آ آ آ !.. الله يعميني لا آتي.

– إكراماً لله.

– لا تضطريني إلى حلف يمين، جل شأنه.. و الله، بالله، لا آتي. الله يعميني لا آتي.

– تعالي ولِك . لا يمكن أن أتركك هنا أبداً. انظري، حلّفتك بالله.

– لا آتي يا أختي، ألست أنت التي أخرجتني من البيت مرة، لن أعود إلى ذلك البيت ثانية ولو خربت الدنيا.

استمر هذا الأخذ والرد حوالي نصف ساعة قالت السيدة زهرة في نهايتها:

- إن كنت حلفت يميناً فقد حلفت، ندفع كفارته غداً، نشتري رغيفاً من الخبز ونقسمه فوق رأسك ثم نطعمه للكلاب..

قالت هذا وحملت المنقل الصاج بيدها، والخزانة الشعرية بيدها الأخرى ومشت. ونقلت المرأتان الأشياء إلى البيت في الظلام.

قالت السيدة زهرة:

- إن كنت مسلمة صدقيني يا أختي، والله ليس لدينا ما نأكله..

وفي اليوم التالي جلبت السيدة هاجر أربع سمكات من آسكوي وقدمت إثنتين منها للسيدة زهرة. لكن السيدة زهرة ردتهما وقالت بتأثر:

- لا آخذها أبداً.

- إكراماً لله يا أخت.. خذي ولك، أموت إن لم تأخذيها..

- أقسمت لا آخذها..

وبعد أخذ ورد استمر طويلاً أخذت السيدة زهرة السمكتين.

باعت السيدة هاجر طستها النحاسي ذلك اليوم واشترت بثمنه بعض المأكولات والأشياء الخفيفة، وأعطت السيدة زهرة مقدار طبخة من الأرز وقليلاً من السمنة.

وبما أن كنتها كانت تمر بها وتعطيها قليلاً من المال بين فترة وأخرى استطاعت السيدة هاجر أن تسدد أجرة شهر من الأجور المتراكمة عليها.

استمرت حالة التعايش الحسنة هذه شهرين فقط، وصلنا بعدها إلى المحاكم ثانية بسبب الأجرة. فألقيت السيدة هاجر إلى قارعة الطريق مرة ثانية بالطرق الإجرائية، كما ألقيت حاجياتها ثانية أمام الباب، وحجز ثانية سريرها المعدني الذي كانت قد استردته، ومرآتها ذات الإطار وطاولتها، ولم يكن لديها شيء آخر يمكن أن يحجز، فما تبقى كان عبارة عن فراش ولحاف وبضع قطع غير قابلة للحجز. وسلمت المحجوزات لصاحبة البيت على أنها <<شخص ثالث أمين >>.

وكما تجر القطة أولادها سحبت السيدة هاجر متاعها إلى حافة الطريق، وحملت حفيدها الباكي بين أحضانها وصعدت على صُرَّة وجلست فوقها وصارت تبكي. وراح المارّة يسألونها:

– ماذا حدث يا خالة ؟

وراحت هي تشرح لهم.. فيردد المستمعون:

– واخ، واخ، واخ!.. ثم يتابعون سيرهم.

أقبل المساء، وحلّ الظلام.

– هي .. هي يا أخت، يا سيدة هاجر !..

كان المطر غزيراً، وكان هذا صوت السيدة زهرة صاحبة البيت، فردت عليها السيدة هاجر صائحة:

- ماذا هناك ؟ ماذا تريدين أيضاً ؟ إن شاء الله ينهدم بيتكم على رؤوسكم!..

- هيا تعالي يا.. وكأننا فعلنا ذلك بإرادتنا يا أخت.. هيا تعالي إكراماً لله!..

- لا تحلفي عليَّ، فلن آتي هذه المرة أبداً.

- ولِك، هل أنت مجنونة ؟ إن كنت لا تهتمين بنفسك، فخافي على هذا المعصوم الصغير.. والله لا أنظر في وجهك أبداً إن لم تأتِ. ولك، نحن والله حيارى، هل تظنين أننا نعرف ما نفعله؟

توسّلت السيدة زهرة ورجت كثيراً، وأخيراً نقلت المرأتان المسنَّتان المتاع إلى البيت وأعادتا ترتيبه.

باعت السيدة هاجر معطفها القديم في اليوم التالي، واشترت بثمنه بعض المأكولات، وأعطت صاحبة البيت مما اشترته مئتين وخمسين غراماً لحمة مفرومة وكيلو غراماً فاصولياء يابسة. لكن السيدة زهرة قالت:

- لا آخذ.. لن آخذ منك شيئاً بعد الآن..

- خذي ولِك.. هل أنا غريبة يا ؟ إن لم نسرع لمساعدة بعضنا بعضاً فمن يسرع لمساعدتنا ؟ والله بالله أزعل منك إن لم تأخذي.

وبعد أخذ ورد أخذت السيدة زهرة الأشياء المقدمة لها وردت للسيدة هاجر الأمتعة المحجوزة لديها.

بعد ثلاثة أشهر وصلتا أيضاً إلى المحاكم إذ لم تتمكن السيدة هاجر أيضاً من دفع الأجرة، فرميت أيضاً خارج البيت بالطرق الإجرائية، وجرّت أيضاً حاجياتها إلى حافة الطريق، وحملت أيضاً حفيدها الباكي بين أحضانها، وصارت تبكي وسألها المارة أيضاً:

– ماذا حدث ؟

– وشرحت لهم. فردّدوا:

– واخ، واخ، واخ!.. طيب وماذا ستفعلون ؟

– لا شيء..

– واخ، واخ، واخ!.. أليس لديكم مكان تذهبون إليه ؟

– لا !.

– واخ، واخ، واخ!.. هل يجوز رمي امرأة عجوز وطفل صغير إلى قارعة الطريق؟ يا لهم من قساة القلوب. واخ، واخ، واخ!..

كان الفصل شتاءً وكان الجور بارداً. حل الظلام. مرة أخرى جاءت السيدة زهرة وتوسّلت إلى المستأجرة لتأخذها إلى البيت، لكن تلك كانت غضبى ولا تريد

الذهاب. إلا أنها ذهبت في النهاية. وفي اليوم التالي أعطت صاحبة البيت زجاجة من زيت الكاز لإشعال المصباح، وأعطتها بعد جهد حفنتي عدس.

استمرت هذه الحالة ثلاث سنوات تقريباً، أخرجت فيها السيدة هاجر من البيت بالطرق الإجرائية ثماني مرات لعدم دفع الأجرة. وفي المرات الثمانية كانت صاحبة البيت تأتي وتتوسل إليها وتعيدها إلى البيت.

في الصباح الباكر لأحد الأيام أقبل الحراس ورجال الشرطة وعمال الهدم، إذ قررت البلدية هدم هذا البيت غير المرخص. ولم يستغرق هدم البيت الذي بني بصعوبة ومشقة في سنتين، سوى خمس عشرة دقيقة تقريباً.

حملت المرأتان المسنّتان رشيداً العاجز بين أحضانهما وسحبتاه إلى حافة الطريق، ثم حملتا أمتعتهما وكومتاها في وسط الطريق.

سأل شخصان من المارة:

- ماذا حدث ؟

- شرحت لهما السيدة هاجر ما حدث، فردَّد المارّان معاً:

- واخ، واخ، واخ!..

وتابعا سيرهما وهما يردِّدان:

- واخ، واخ، واخ!..

قصــة رائعــة ٩

لا أستطيع التحدث بحرارة على الهـاتف مـع شـخص لم أتعـرف بـه مسبقاً. أكون عندها حذراً بـل وخائفاً. فما لم تروا وجه وشكل المتحدث الـذي علـى الطـرف الآخـر مـن الخـط، لا تفهمون قصده وغايته.. لذلك فإن الذين يتحدثـون معـي هاتفيـاً للمـرة الأولى يظنون أني أكثر جفاء وأكثر بروداً مما أنا عليه في الواقع. وكنت أتسـاءل بعـد أن أغلق سماعة الهاتف، لمـاذا لم أكـن أكـثر حـرارة ؟ فـأندم علـى غلاظـتي، وأغضب من نفسي.

هـو، اتصـل بـي هاتفيـاً، عنــد منتصف الليل تقريباً.

- آلو..

- تفضلوا.

- أهذا أنتم؟

انظروا لهذا السؤال !.

- نعم أنا، وهل أنتم أنتم ؟

- نعم.

- حسناً.

- سيدي، أنا..

- شكراً لكم، إنكم تبالغون في الإطراء.

هنا كلمات مديح وثناء، لا داعي لذكرها، لكنها أعجبتني جداً.. هو يريد مقابلتي.

- تفضلوا يا سيدي.

أعطيته عنواني. حضر في اليوم التالي عند الساعة الرابعة عشرة رجل في مثل سني، إنما يساوي ثلاثة أمثالي بضخامته. قرأ كتاباتي كلها. ليس ادعاءً، بل قرأها فعلاً. ويتذكرها جميعاً.

يبدأ بقوله:

- تلك القصة..

ويسرد أحداثها فأنثني من شدة الضحك وأقول:

- أماناً ما أجملها، فلأكتبها.

ينظر في وجهي ويقول:

- هذه قصتكم.

ويوضح مكان وتاريخ نشر القصة، فتتجمد ضحكتي في وجهي، وأنقبض.

يتابع في سرد أحداث قصة جديدة بادئاً بقوله:

- وتلك..

- أماناً ما أجملها، هل نشرت هذه القصة في مكان ما؟

ينظر في وجهي مشدوهاً ويقول:

- إنها قصتكم.

أنزعج وأنقبض مرة أخرى. أما هو فيسكت ويسكت ثم يسرد أحداث قصة جديدة بادئاً بقوله:

- وتلك..

- أماناً ما أجملها. لمن ؟

يرمقني بنظراته، فأفهم عندها أنها أيضاً قصتي. يستمر في سرد القصص. أما أنا فما عدت أضحك، ولا أقول شيئاً.

إنه مغرم جداً بالسخرية، ويكتب قصصاً ساخرة، وبما أن كتَّاب القصة الساخرة شجعوني جميعاً وأمدوني بالأمل، لذلك كنت أرغب دوماً في دعم هؤلاء

ومساعدتهم بقدر استطاعتي. فأترك عملي وأقرأ كتاباتهم دون أن أقفز عن الفاصلة، وأصححها بحسب فهمي، فأحذف منها، وأضيف إليها، وأعمل على نشر ما يمكن نشره.

تناولت القصة التي قدمها لي ضيفي وقلت:

- سأدرسها وأعطيكم رأيي فيها.

- ألا يمكنكم قراءتها الآن؟

- من الأفضل أن أقرأها في وقت راحة.

ذهب هو. فشرعت فوراً بقراءة القصة التي تركها لي. كنت أقرؤها بنية حسنة جداً. ولكن إذا كانت القصة سيئة لهذا الحد. عندها لا تنفع معها حتى النية الحسنة... فكرت أولاً بتصحيحها. ولكن ماذا أصحح فيها؟.. اللغة سيئة، النحو سيئ. ليس فيها شيء اسمه موضوع، قرأتها مرتين. لم يكن واضحاً ماذا تريد أن تقول هذه القصة.

جاء في اليوم التالي وكان منفعلاً، وسألني:

- كيف رأيتم قصتي ؟

فأجبته بأسلوب مقبول محاولاً إفهامه دون إزعاج:

- جيدة، جيدة لكنها ليست قصة ساخرة.

انقلبت سحنته فوراً وقال:

– كيف ليست ساخرة ؟ لو قرأتموها مرة أخرى..

– يا أخي، القصة الساخرة يجب أن تضحك قارئها قبل كل شيء، تضحكه قليلاً، تضحكه كثيراً.. بعض القصص الساخرة تجعل قارئها يتثنى من شدة الضحك، وبعضها تجعله يبتسم. وفي كل الأحوال فإن الإضحاك شرط والبقية تأتي من بعده.

– قصتي ساخرة.

– ممكن، أنا لا أقول أن رأيي صحيح مئة بالمئة. قد تكون قصتكم ساخرة لكنها لا توافق مفهومي للسخرية، ولا تثير إعجابي. قد يرى غيري في قصتكم سخرية كبيرة جداً.

– لا، أنا يهمني رأيكم. المهم بالنسبة لي أن تعجبوا أنتم بهذه القصة.

مددت يدي إليه بالقصة قائلاً:

– تفضلوا. لم تثر اهتمامي كقصة ساخرة.

– إقرؤوها مرة أخرى باهتمام، وسأعود إليكم ثانية.

هذا ما يقال عنه مصيبة بشرّابات. وبما أن القصة التي لم تعجب المرء يوماً ما قد يقرؤها ويعجب بها في يوم آخر، كما قد يحدث العكس أيضاً، وظناً مني أني أخطأت في حكمي، قرأت القصة مجدداً بدقة متناهية. قصة ساذجة لم يكتب مثلها كثيراً، بل لا يمكن أن يقال أنها قصة.

أقبل بعد ثلاثة أيام.

- كيف رأيتموها؟

- مع الأسف..

- إنكم تخطئون، فتلك القصة قصة جميلة.

- ممكن. لكنها ليست قصة ساخرة.

- إنها قصة ساخرة مثل العسل.

- وهذا أيضاً ممكن ويعني أني لم أفهمها.

- كلا، أنتم تفهمونها.

لم أحتمل. فصرخت فيه:

- لا تضغط علي يا رفيق، خذ قصتك وانصرف عني.

- لن آخذها، سأجعلكم تقرون بأن هذه القصة قصة ساخرة كبيرة..

- أغضباً يا هذا؟

- غضباً مصباً.. أنا ذاهب وسأعود ثانية بعد بضعة أيام.

هذا الرجل إما أنه مجنون، أو أنه كاتب ساخر كبير، لكني لا أفهم سخريته، عرضت القصة على ثلاثة من كبار كتَّاب القصة الساخرة ذوي أساليب مختلفة في سخريتهم، وطلبت منهم قراءتها، سألني الثلاثة:

- هل أنت الذي كتبتها ؟

- لا.

قال أحدهم:

- إسفاف..

وقال الآخر:

- إنه عمل أطفال وأولاد صغار.

وقال الثالث:

- صف حكي. حتى صف الحكي له جمالية أحياناً، وهذه ليست كذلك.

وبعد عدة أيام جاء الساخر، وقال:

- كيف؟ هل فهمتموها؟ هل توصلتم إلى مغزاها؟

- يا أخي إن كنت تريد أن أعجب بقصتك غصباً عني فلأقل لك فوراً: إنها قصة ساخرة لا مثيل لها.. أما إن كنت تريد رأيي الشخصي فإني أقول لك ابتعد فوراً عن كتابة القصة الساخرة وأعمل عملاً لا علاقة له لا بالقصة الساخرة فسحب، ولا بالقصة عموماً، بل لا علاقة له بالكتابة على الإطلاق لأن هذا الذي كتبتموه على أنه قصة ساخرة ليس فيه أدنى بصيص أمل.

- قولوا بصراحة ما الذي لم يعجبكم فيها؟

- لم يعجبني أي شيء فيها.

- أروني!.

أشرت إلى الأخطاء اللغوية، والى الأماكن التي لا يُعرف رأسها من ذيلها، ولا ذيلها من رأسها، وقلت:

- هذه ليست قصة ساخرة، هذه برودة، لا الموضوع واضح فيها، ولا فكرة فيها ولا معلومة، والجهالة فيها كثيرة، ولو كتبها طالب مرحلة إعدادية على أنها موضوع تعبير ثقوا تماماً بأنه يرسب في صفه.

- أتُراك تقول هذا غيرة مني ؟

ضحكت وقلت:

- لو أني أعجبت بكتابتك، فنقحتها قليلاً، ثم نشرتها في إحدى المجلات الساخرة على أنها كتابتي، لكان من حقك أن تقول هذا، ولكن ليست بيننا أية علاقة أو مناسبة فلماذا أغار منك ؟..

- إذا كان الأمر كذلك، فهل تكتب رأيك هذا تحت قصتي وتوقع عليه.

لم تكن هناك وسيلة أخرى لدفع هذه المصيبة عن رأسي فكتبت عن القصة كل هذا الذي ذكرته أعلاه وذيلته بتوقيعي. فأخذ قصته وغادر.

كنت أظن أني تخلصت منه، ولكن ألا يحضر في اليوم التالي! فصرخت فيه.

– يا سيد، هل أنت مصيبة حطت على رأسي ؟ هيا انصرف عني..

فأجابني ببرود:

– رويداً، فلن آتيك بعد اليوم أبداً.

ثم مد إليَّ صفحة مقتطعة من مجلة، وأردف قائلاً:

– إقرؤوا هذه!.

قرأتها، وإذ بها نسخة مطبوعة من القصة التي عرضها علي، فقلت:

– مبروك، إذاً فقد نشروا قصتك.

– إقرؤوا هذا أيضاً !

وهذا كان رأيي الذي كتبته البارحة بخط يدي تحت القصة وكان كما يلي:

<<فيها أخطاء نحوية كثيرة، اللغة مكسرة، القصد غير مفهوم، ساذجة جداً، لا موضوع لها، لا أثر للسخرية فيها. لو كتب طالب مرحلة إعدادية مثل هذه الكتابة لرسب في صفه في مادة اللغة التركية. لذلك أوصي بأن تتركوا فوراً كتابة القصة، وأن تتجهوا إلى عمل آخر لا علاقة له بالكتابة من قريب أو بعيد >>.

مدَّ لي يده بمجلة وقال:

–والآن انظروا إلى هذه المجلة مرة أخرى !.

كانت المجلة التي قدّمها لي إحدى المجلات التي أكتب فيـها، والقصـة التي قرأتها قبل قليل علـى صفحـة مقتطعـة مـن مجلـة كـانت منشـورة في هـذه المجلة، لكن المحير في الأمر أن اسمي كان مكتوباً بالخط العريـض فـوق القصـة، فصرخت فيه:

– هذا أمر معيب! كيف تمرِّر قصتك دون أن تسـتحي علـى أنـها قصـتي؟ كيف تنشرها تحت توقيعي؟.

– أنت تخطئ. هذه القصة نشـرت قبـل سـنتين، إنـها قصتـك، انظـر إلى تاريخ صدور المجلة، إنه قديم، إنها قصتك كما ترى..

– إذاً فهي قصتي !.

– نعم، إنها قصتك..

– أنا كتبتها أليس كذلك؟!..

– نعم أنت، حتى أن ثلاث صحف يومية أعلنت عنها باسمكم على أنـها <<أجمل قصصنا الساخرة، قصة رائعة >>.

– ها ها !!.. لم يكن من فـراغ أنـي أحسسـت فـور قراءتـها بـأن في هـذه القصة جمالاً خفياً، وأن فيها سخرية مختلفة لا أعرف إن كنتم لاحظتم ذلك؟!

هذه المرة تصدى هو لي قائلاً:

– وما هذا الذي كتبته هنا بخط يدك عن هذه القصة التافهة؟

– لا تأبهوا لذلك، فهذا قدر كل الأعمال الكبيرة، إنها لا تُفهم في حينها ولا تقدَّر حق قدرها على أنها أعمال كبيرة إلا فيما بعد، افهم كم هي رائعة هذه القصة بحيث أني أنا نفسي لم أفهم ولم أعرف قدرها وقيمتها.

فصرخ محتداً:

– اضحك على أبيك بهذا الكلام! ولك الإنسان يخجل من كتابة مثل هذه الكتابة التافهة تحت اسم قصة ساخرة! سوف أريك !.

وخرج مغادراً وهو يهدد ويتوعد، والرأي الذي كتبته بحق نفسي وبحق قصتي في يده.

لا أعرف ماذا سيفعل. ومنذ ذلك اليوم وأنا أفكر وأتساءل كيف كتبت هذه القصة السيئة. وفي النهاية اهتديت إلى تفسير لذلك، وإلا كنت سأجن.

أعتقد أن هذه القصة ناجحة جداً في مجال القصة الساخرة لأن أحداً لم يستطع حتى الآن كتابة قصة بهذا السخف. إذاً أنا رغبت في كتابة قصة سخيفة ونجحت في ذلك بعون الله..

والآن يجب أن أقول ذلك، وماذا يمكنني أن أقوله غير ذلك؟

لكنكم ستقولون:

– لو كانت قصتك السخيفة واحدة فقط، قبِّل يدك وضعها على رأسك.

وهذا أيضاً صحيح، ولكن دعوه بيننا، ولا تُسمعوه لأحد، ألا يمكن؟ .

يحيا الوطن

١٠

قال:

– إن كنت تنظر إلى الأمور هكذا، فأنا لا أعيش.

كنا جالسين تحت أشعة الشمس في ساحة مشغل السجن مستندين بأكتافنا إلى جداره، مرّ بنا الحارس متبختراً ويداه خلف ظهره وكأنه يقول أنا من خلقت الجبال الصغيرة. أجبته:

– ومن الذي يعيش، الجميع كذلك.. علينا أن نشكر ظروفنا هناك من هم أسوأ حالاً منا. المهم أن يكون جسمك صحيحاً معافى..

– لا يا أخي، ليست المسألة هكذا. أنا لا أعيش أبداً. لا أعرف كيف أوضح لك ذلك.. أنت تراني الآن هنا أمامك، أليس كذلك ؟ لا تبالي برؤيتك لي،

فأنا غير موجود. أنا لا أعيش. فـهمت أنـي لسـت حيـا عندمـا كنـت في الثانيـة عشرة. إذ لم تكن توجد مدرسة حكومية في بلدتنا حتى ذلـك الحـين، وفي السـنة التالية لظهور الكتابة الجديدة افتتحت لدينا مدرسـة ابتدائيـة حكوميـة. فأرسـل وجهاء البلدة أولادهم إلى هذه المدرسة. وبما أن والدي من وجهاء البلدة أيضاً فقـد أراد تسجيلي في المدرسة الحكومية. أمسك والدي بيدي واصطحبـني إلى المدرسـة. ولما طلب مدير المدرسة إخراج قيد نفوسي، أجابه والدي:

- لم نخرج له قيد نفوس. ألا يكفي أن أعطيكم إخراج قيدي أنا؟

- لا.. لا يجوز..

- يا روحي، يا سيادة المدير ما الذي لا يجوز في ذلـك ؟ إن كـل شـيء لي يعتبر لابني، وإخراج قيدي وإخراج قيد ابني سواء بسواء..

لا يمكن. وكان لدينا في البلدة كتّاب الخوجا داوود يعلّـم الكتابـة القديمـة. هناك ماكانوا يطلبون إخراج قيد.

استكتب والدي "العرضحالجي" الكائن أمام دار الحكومة استدعاء، ذهبنـا إلى دائرة النفوس. أخذ الموظف الاسـتدعاء. أخـرج بعـض السـجلات. راح يقلـب ويبحث فيها. عثر على قيد والدي، فسأله:

- هل اسمك رشيد ؟.

-نعم.

راح الموظف يقرأ المعلومات المدونة في قيد والدي:

- تاريخ الولادة /١٨٩٧/.. محلة الطاحونة زقاق كرم الطاووس. رقم القيد عتيق /٥١/ جديد /٢٨/ متزوج من هاجر عام /١٩١١/ صار لك ولد، اسمه أمين أليس كذلك ؟.

- نعم كذلك.

فقلت متسائلاً:

- أماناً يا أبي، هذا الرجل يعرف كل شيء. كيف يعرف ؟

أجابني والدي:

- طبعاً يعرف، لا يمكن أن لا يعرف، إنه موظف حكومي كبير..

ثم التفت إلى الموظف قائلاً:

- أريد إخراج قيد نفوس لابني أمين، لأنني سوف أسجله في المدرسة الحكومية.. وقد أهملنا الموضوع حتى الآن..

نظر الموظف إلى والدي بارتياب وقال:

- أي قيد نفوس تريد يا آغا ؟ إن ابنك ميت..

قال والدي مدهوشاً:

- ما هذا الكلام؟ ها هوذا ابني هنا، هو ذا بجانبي..

أعاد الموظف قراءة المعلومات المدونة في سجل قيد نفوس والدي ثانية..

- هل اسمك رشيد؟

- رشيد..

- وهل اسم أبيك محمد؟.

- نعم، وهذا صحيح.

- متزوج من هاجر، وصار لك ولد اسمه أمين.

- نعم صحيح.

- هل كل المعلومات الواردة في القيد صحيحة وموت ابنك أمين خطأً ؟ إنه في القيود ميت، ونحن لا نعطي الميت قيد نفوس.

رحت أجهش بالبكاء. فصرخ بي والدي محتداً:

- اسكت ولك، هي يموت الإنسان بمجرد أن يقول السجل أنه ميت؟

- الموظف يقول إنني ميت..

- دعه يقول، أنت انظر إلى كلامي أنا.

- لكنك أنت قلت بأنه <<يعرف كل شيء، موظف حكومي كبير>>..

رحت أبكي أكثر وأكثر.

قال الموظف:

– السجل لا يكذب، فالمدوّن هنا هو الواقع، أما إن كانت لكم مسألة أخرى فأنا لا أعرف، هنا لا نعطي الميت إخراج قيد نفوس.

– أي مسألة ستكون لنا؟

– أنتم ألاعيبكم كثيرة، تتفقون مع المختار فتظهرون الميت حياً، والحي ميتاً، وتحتالون احتيالات كثيرة من هذا النوع.

– متى مات ابننا ؟ ليتنا نعرف ذلك..

– نظر الموظف في السجل وقرأ:

– سحب إلى العسكرية في الحرب العالمية الأولى. وسقط شهيداً في جنق قلعه عام /١٩١٥/. وشطب قيده من سجلات النفوس بناء على كتاب شعبة التجنيد رقم ٣٣١/٨٥.

احتد والدي وصاح بالموظف:

– يا أفندي انظر إلى ذاك السجل، هل تزوجت عام /١٩١١/ ؟.

– نعم، هكذا دُوِّنَ هنا، تزوجت عام /١٩١١/.

– يا ناس، لو ولد ابني يوم تزوجت لصار عمره أربع سنوات عام /١٩١٥/، فمتى كبر هذا الطفل ابن الأربع سنوات ومتى ذهب إلى العسكرية ومتى استشهد؟

دهش الموظف أيضاً وحار ونظر إليّ ثم نظر في السجل ثم نظر إلى والدي ثم نظر في السجل ثانية وقال:

- ابنك أمين مولود عام /١٨٩٦/، أي أنه كان في التاسعة عشرة من عمره عندما استشهد عام /١٩١٥/.

- هل الولد مولود عام /١٨٩٦/ ؟ رجاء يا أفندي ليتك تنظر ما هو تاريخ ميلادي ؟.

- أنت ؟ أنت مولود عام /١٨٩٧/.

- رجاء يا أفندي لا تقل هذا، هل أنا مولود بعد ابني بسنة؟

تجمع الموظفون الآخرون الموجودون في الغرفة حولنا، ولم يستطع أحد أن يفهم هذه المسألة. فقال موظفنا:

- إذن هكذا، هكذا دون في السجل. لا شك من وجود خطأً ما، ولكن أين؟

سأل والدي الموظفين الموجودين في الغرفة:

- أهناك واحد منكم ولد قبل أبيه أيها السادة ؟

صرخ الموظف غاضباً:

- لا تخلط آباء الناس. نحن لا نمنح الميت إخراج قيد. هذا هو الموضوع.

ذهبت مع والدي إلى مكتب مدير النفوس. شرح له والدي الموضوع فنزل المدير معنا إلى غرفة السجلات. نظر المدير وموظفنا في السجل وقال:

- نعم هكذا، هكذا تقول القيود ابنك استشهد عام /١٩١٥/.

قال هذا. لكنه استغرق في تفكير عميق، وأردف:

- هذه المسألة يمكن أن تكون قد حدثت على الشكل التالي: عندما تزوجت، تزوجت بامرأة أرملة أكبر منك سناً، ولهذه المرأة ابن من زوجها السابق اسمه أمين. وابن زوجتك هذا أكبر منك بسنة. بينما تبدو في القيود وكأنك أبوه.

أما أنا فلم أكف عن البكاء والصياح. فصاح بي والدي:

- اسكت ولك، هل السجل يعرف أم أنا أعرف ابن من أنت؟

قال الموظف مخاطباً المدير:

- أحسنت يا سيدي، لا بد أن الأمر كذلك..

والدي لا يقرأ ولا يكتب، لكنه ليس من الذين يخضعون للموظفين.

قرأ الموظف في السجل:

- هاجر بنت باكير.. مولودة عام ١٩٠٤..

فصاح والدي:

- إذن حسبما يقول سجلكم هذا فإن زوجتي ولدت عام ١٩٠٤، وابنها أمين ولد عام ١٨٩٦ أليس كذلك؟ يا عالم يا ناس هل سمعتم بولد يولد قبل أمه بثماني سنوات؟

حسبما هو مسجل في القيود أكون قد ولدت قبل أبي بسنة، وقبل أمي بثماني سنوات، وتكون أمي قد تزوجت من أبي وهي في السابعة من عمرها، وتكون قد أنجبتني قبل أن تتزوج بخمس عشرة سنة.

تجمهر المدير والموظفون جميعاً حول السجلات وراحوا يفكرون. أخيراً حلل المدير الموضوع قائلاً:

– هذه المسألة يمكن أن تكون حدثت على الشكل التالي: هاجر كانت متزوجة سابقاً من أحدهم، وهذا الرجل الذي تزوجته له ابن من زوجة أخرى اسمه أمين. وابن زوج هاجر أكبر منها بثماني سنوات. ولما توفي زوجها فمن الطبيعي أنها لن ترمي ابن زوجها إلى الشارع. أخذته معها وتزوجت من رشيد هذا، وهكذا يصبح أمين أكبر من خالته زوجة أبيه بثماني سنوات، وأكبر من عمه زوج خالته بسنة واحدة.

صاح الموظف:

– هكذا، لا يمكن أن يكون إلا هكذا.

صاح والدي:

– التوبة، أي حساب هذا يا عالم؟ زوجتي تزوجت بي وهي في السابعة من عمرها، وقبلي كانت متزوجة من زوج آخر!

صاح المدير:

- حسناً كيف يمكن أن يكون غير ذلك؟ إن كنت تعرف ما هو أحسن هات واشرح لنا..

أما أنا فكنت مستمراً في البكاء، وعيناي تذرفان الدموع الغزيرة، ووالدي يصيح بي:

- لا تبك ولك، ستذهب إلى مدرسة داوود خوجه.

مرت فترة طويلة كبرت خلالها. ثم ألا يطلبونني إلى العسكرية ؟ يا عالم أنا ميت، وخدمت عسكريتي واستشهدت في جنق قلعه، ما هذه الحالة ؟ هل يذهب الميت إلى العسكرية ؟ لكننا لم نستطع أن نفهم أحداً. حضر رجال الدرك وساقوني مخفوراً إلى شعبة التجنيد، ولحق بي والدي الذي قال لرئيس الشعبة:

- سيدي، هناك شهادة في سجلات النفوس تبين استشهاد هذا الولد وأنه لا يعيش، ولو كان حياً لمنحوه إخراج قيد نفوس.

فرد عليه رئيس الشعبة قائلاً:

- هل ستهرّبون من العسكرية رجلاً واقفاً أمامي مثل الخازوق ؟

وأمر بسوقي إلى إحدى القطعات.

فرحت بذلك. إذن فأنا حي. عظيم. أنهينا خدمتنا العسكرية. الرفاق يسرحون، أما أنا فلا. وكيف يسرحوني؟ إذ يجب أن يكون لدي إخراج قيد نفوس ليكتبوا عليه <<أدى خدمته العسكرية >> وأنا ليس لدي إخراج قيد

نفوس، ولا يمكن تسريحي بأي شكل. كتبت وحدتي إلى شعبة التجنيد <<لإرسال إخراج قيد نفوسه >> وبعد شهر ورد جواب شعبة التجنيد <<الشخص الذي طلبتم إخراج قيده، مات في أحداث درسيم عام ١٩٣٨ أثناء تأديته خدمته العسكرية >> فقلت لقائد القطعة:

– هناك خطأ في هذه الإجابة، فأنا لم أمت في درسيم، وإنما استشهدت في جنق قعله. أفضل حل هو أن تسألوا مديرية النفوس وتأخذوا منها الجواب الصحيح.

ورغم محاولاتي العديدة لم أستطع إثبات أني حي بشكل من الأشكال حتى أسرح. أخيراً زودوني بورقة ممهورة بخاتم تثبت أني أديت خدمتي العسكرية. وأطلقوني.

عدت إلى بلدتي وإذ بوالدي قد توفي. وهو مدين للمصرف بخمسة آلاف ليرة، ومدين للحكومة بضريبة مقدرة بألفي ليرة. ولأني وريثه الوحيد، يجب علي أن أفي ديون والدي. أمسكت المالية بخناقي. أنا لست حياً يا عالم، ومن لا يصدق فليسأل شعبة التجنيد، ومن لا يصدق شعبة التجنيد فليسأل مديرية النفوس. وهل يدفع رجل لا يعيش ضريبة والده؟

– ألست ابن رشيد آغا؟ هل تنكر والدك ؟

لا إني لا أنكر. لكني لست حياً. لم أستطع إفهام أحد. يجب أن تدفع الضريبة المستحقة على أبيك. كنت أنوي عدم الدفع. لكن إن لم أدفع فلن أرث الأموال التي خلَّفها أبي، وقد خلَّف أراضٍ كثيرة وبيوتاً ودكاكين.

اقترضت مالاً من مكان ما وسدَّدت ديون أبي، على أن أحصل على ميراث أبي وأسدِّد هذا القرض الذي اقترضته. كنت راضياً بدفع الضريبة، إذ يشعر المرء بأنه حي على الأقل. لكنهم في النهاية لا يعطونني ميراث والدي. إذ كيف أثبت لهم أني ابن أبي ؟ الأمر يتطلب قيد نفوس وهم يقولون: «أنت لست حياً لترث أباك. أنت مُتَّ قبل أبيك..» لم أستطع بشكل من الأشكال إثبات أني حي أعيش. يا عالم هل أنا موجود هنا؟ هل ترونني؟ هل أقف على قدمي مثل دقماق؟ هل أديت خدمتي العسكرية؟ هل دفعت الضريبة؟

فيجيبون بأن هذا كله غير مجدٍ، من حيث أنني حي فأنا حي، لكني لست حياً رسمياً.

أقول:

- لم أمت..

فيجيبون:

- لكن المعروف أنك ميت..

ولكي أثبت أني حي راجعت محكمة الأحوال الشخصية، ووكلت محامياً. ولكن ألا يتصدى لنا محامي الخزينة ويطالب بأن تؤول أموال وأملاك

أبي إلى الخزينة لأنه لا وريث له؟ ويصر ويؤكد أنني ميت.. وكيلي المحامي يؤكد حياتي، وذاك يؤكد موتي.. يتخاصمان ويتنازعان.. وقد جمع محامي الخزينة وثائق وشهادات عديدة تؤكد موتي، بحيث كدت أنا نفسي أصدق بأني ميت. إذاً فأنا رسمياً ميت..

دامت المحكمة سنتين لم أتمكن خلالهما من ممارسة أي عمل لأني لا أحمل إخراج قيد نفوس.. وكادت الديون تخنقني. وفي يوم من الأيام وبشكل من الأشكال خرجت عن طوري فتكلمت كلاماً زائداً، وناقصاً، لا أعرف ماذا قلت. ألقوا القبض علي ورموني في السجن. يا عالم كيف تسجنونني؟ هل أنا حي؟ هل يسجن رجل ميت؟.

- ولك وهل يتكلم الميت؟ رجل طويل عريض يقف أمامي ويقول أنا ميت.

فرحت بدخولي السجن. أتعرف ؟ يكاد الإنسان يشعر بأنه حي على الأقل.

ولما خرجت من السجن، أيقنت أنه لا يمكنني الحصول على الميراث، والدائنون يضيقون علي. حملت رأسي وجئت إلى استانبول. لم أستطع الحصول على عمل أحببت فتاة، واتفقنا على الزواج. لا أستطيع الزواج. فأنا لست حياً لكي أتزوج.. ومديرية النفوس ترسل إخراج قيد نفوسي على أني ميت. عشنا معاً بدون عقد نكاح. ولكن من أين سنصرف ؟ لا أستطيع دخول المعامل، ولا القيام بأي عمل. أمّنت رجلاً وفتحت دكاناً باسمه. ولأني ميت رسمياً، لم أستطع

الادعاء بأني صاحب دكاني. استمرت هذه الحالة سنة، وبعدها جمع الرجل الذي سجلت الدكان باسمه أموال الدكان كلها وهرب بها. ثم ألا تأتي الضريبة؟ ولأني متواطئ مع ذلك الرجل ترتبت الضريبة كلها عليّ. أصرخ أنا لست حياً أنا لا أعيش لكن لا أحد يسمع..

بدأت بالسرقة.. وماذا كان بإمكاني أن أفعل غير ذلك؟ ألقوا القبض عليّ. أقول لهم أنا ميت رسمياً، فلا يبالون ويقولون «وهل يسرق الميت؟ عندما تسرق فأنت حي».

فرحت بدخولي السجن، إذ يكاد الإنسان يشعر بأنه حي على الأقل.. وهكذا.. أريد دخول المدرسة، أنت ميت. وعندما يسحبونني إلى الجندية، أنت حي. أطالب بميراث أبي، أنت ميت. وعندما يرمونني في السجن، أنت حي. أريد الزواج، أنت ميت..

مع ذلك فإن مشكلتي لا شيء. فأنا عشت سابقاً ثم تبدي القيود أني مت أي أني رسمياً لا أعيش. أنا لي أربعة أولاد، أولئك ليسوا أحياء، وليسوا أمواتاً. أربعتهم غير مولودين رسمياً. عندما لا يعيش والدهم رسمياً، فهل يولد الأولاد؟.. وبعد ثلاثة أيام عندما أخرج من السجن فلن أعيش رسمياً.

صفر الحارس، فاتجه الذين يتجولون في الساحة إلى مهاجعهم. نهضنا نحن أيضاً. فقال:

- أخي، ماذا سيحدث لو عشنا؟.. المهم، أن يعيش الوطن. أليس كذلك ؟

نحن إن عشنا ممكن، وإن لم نعش.. المهم أن يعيش الوطن، يحيا الوطن..

* * *

سمسار

١١

كشك آل صارم بيك مجاور لكشك آل مهري بيك في محلة سرير الجوز. وقد بقي هذان الكشكان لهذين الجارين من أبويهما اللذين ورثاهما عن جديهما. وكان كلاهما من «أولاد الباشوات».

يقع كشك صارم بيك داخل حديقة مساحتها ستة دونمات. أما كشك مهري بيك وحديقته فهما وإن كانا أصغر من كشك وحديقة الجيران إلا أنهما أحسن منظراً. ففي الصيف الماضي تمت صيانة سطح الكشك وتغيير المزاريب، كما تم طلاء الجدران الخارجية بالدهان الزيتي وبلون طحيني جميل، وطلاء أباجورات النوافذ بلون كرزي.

أما كشك آل صارم بيك فهو وإن كان كبيراً إلا أنه بلا رعاية. كشك مؤلف من أربع عشرة غرفة.. يتهدم قسم منه في كل يوم، السطح يدلف، الأسوار تتآكل، الجدران تتشقق. وساكنوه يعمدون في كل شتاء إلى هجر غرفة من غرفه والانسحاب إلى الغرف الداخلية.

وكان كل من الجارين ذا أسرة كبيرة، ففي كشك صارم بيك أحد عشر شخصاً. وفي كشك مهري بيك ثمانية أشخاص إضافة إلى الزوار الغادين والرائحين والذين يأكلون ويشربون ويبيتون..

كانت العائلتان تعيشان مع بعضهما في وئام تام. لكنهما كانتا تتخاصمان من حين لآخر. وكان هذا الخصام يستمر شهراً أو شهرين، ثم يلتقي الجاران أمام باب البيت، أو يتقابلان في الطريق، فيحيي أحدهما الآخر ويتساءلان عن الحال والخاطر وكأن شيئاً لم يكن.

- أسعد الله صباحكم الشريف يا صارم بيكي..

- أهلاً بكم يا سيدي، أطال الله عمركم يا سيدي، كيف حالكم؟ أرجو أن تكونوا بصحة وعافية إن شاء الله..

- الحمد لله يا سيدي، نحن داعون لكم. كيف حال ذاتكم العالية يا سيدي؟

- شكراً جزيلاً. والعائلة والأولاد كلهم بخير أليس كذلك ؟..

- بخير يا سيدي. شكراً لكم. وكيف حال عائلتكم؟

وتستمر هذه المحادثة عشر دقائق على الواقف.

ما أن يمر شهر أو شهران على خصامهما حتى تنسى العائلتان سبب الخصام.

فعلاً عندما يتخاصمان لا يكون بينهما سبب وجيه أو غير وجيه للخصام. فجأة يدب الخلاف بين مهري بيك وصارم بيك، ثم تنقطع العلاقات بين العائلتين. وإن لم يكن سبب الخلاف معروفاً وإن اقتضت الأمور أن يظهر أحدهما كمسبب للخلاف فإن المذنب دائماً يكون مهري بيك فهو بغير سبب يعمد ويصلح باب الحديقة، مع أنه جديد. إنه يصلحه نكاية بصارم بيك. بينما باب حديقة صارم بيك مهلهل ومتآكل، ومع مرور الزمن عليه بقي عبارة عن خشبتين. ولأن حالته المادية لا تساعده على إصلاح مثل هذا الباب المتداعي، فإن إصلاح مهري بيك لباب حديقته الجديد كان يضايق صارم بيك لظنه أن جاره يفعل ذلك ليغيظه ويذله، فيتأثر لذلك، وهكذا يتخاصمان. وبعدها لا يتركان كلمة لا يقولانها بحق بعضهما. وتمر فترة من الزمن ويتقابل الجاران في مكان ما فينسيان خصامهما فوراً ويشرعان بالحديث الذي كان ينتهي دوماً هكذا:

- هل تشرفوننا هذه الليلة يا صارم بيكي؟ مضت فترة طويلة لم نجلس فيها ونتحادث.

- ألا نزعجكم بذلك ؟

- عفواً يا سيدي، أرجوكم. بل تشرفوننا، تفضلوا إلى الغداء، ونتناول كأسين معاً. ننتظر الأولاد أيضاً.

- بكل سرور يا سيدي، أخشى أن نزعجكم.

- بل نكون ممنونين جداً يا سيدي.

ويذهب آل صارم بيك إلى آل مهري بيك في تلك الليلة، ثم يذهب آل مهري بيك إلى آل صارم بيك في الليلة التالية. وهكذا يصبح الكشكان بيتاً واحداً ويعيش الجميع سوية. لكن فجأة يختلق مهري بيك خلافاً جديداً. ماذا يفعل؟ يستأجر حدائقياً يزرع حديقة كشكه بالمروج والأزاهير. مع أن صارم بيك يرى أنها حديقة مثل الجنة ولا داعي أبداً لهذا الاعتناء بها. بينما حديقته المؤلفة من ستة دونمات تغطيها الأعشاب والنباتات البرية، فهل من الإنسانية أن يستأجر جاره حدائقياً لحديقته الجميلة تلك بينما حديقته هو جرداء يباب كما لو مر عليها حريق؟ وهكذا وبدون شجار وبدون أدنى صوت تتخاصم العائلتان.

وتمر أيضاً فترة، وتتصالحان ثانية، وبالأصح تنسيان خصامهما. ثم يعمد مهري بيك إلى طلاء الكشك، أو تركيب قضبان لسور الحديقة أو صيانة السطح، بمعنى أنه يفعل شيئاً ما يسبب خصاماً. فتتخاصم العائلتان ثم تتصالحان، وتتخاصمان أيضاً ثم تتصالحان أيضاً. منذ ثلاثين سنة والأمور تسير هكذا. ولكن إلى متى؟ إلى خصامهما الأخير الذي ستعرفونه الآن.. فبعد هذا الخصام لم تتصالح العائلتان أبداً..

الحقيقة أن صارم بيك رجل طيب، لا يريد الضرر لأحد، وفوق ذلك هو يحب جاره مهري بيك كثيراً. وكيف لا يحبه؟ وقد قضيا طفولتهما وشبابهما معاً. وارتبطا ببعض بذكريات لا تنقطع. وولد أولاد الكشكين وترعرعوا بين أيديهما.

فكر صارم بيك بوضع حد للخصام مع جاره، بحيث لا تتخاصم العائلتان مطلقاً بعد الآن. والسبيل الوحيد لذلك بحسب رأيه هو إصلاح كشكه مثلما فعل مهري بيك، وطلاؤه وتجديده، وتنظيم وترتيب حديقته. ولكن ماذا يفعل وهو لا يملك المال اللازم؟ سوف يبيع بنايته الكائنة في حي نيشان طاش التي ورثها عن أبيه، وبثمنها سوف ينفذ أفكاره هذه. وهذا في الحقيقة تضحية كبرى سيقدم عليها صارم بيك إكراماً لجيرانه.

كان آل صارم بيك يعيشون على الراتب التقاعدي، وعلى إيجارات البيت والدكان والبناية التي ورثوها عن أبيهم، وعندما يبيعون البناية التي في حي نيشان طاش سوف يقل موردهم، لكنهم بذلك سوف يمنعون نشوء أي خلاف أو خصام مع جيرانهم، وبالتالي سوف يرممون ويصلحون الكشك الذي يعيشون فيه صيفاً شتاءً. فلو استمر إهمال هذا الكشك الضخم بضع سنوات أخرى فإنه سوف يتهدم وينهار ويخسرونه.

وفي صبيحة ليلة قضاها صارم بيك ساهراً مفكراً إلى أن اتخذ قراره هذا، لبس ثيابه وجلس إلى النافذة المطلة على الطريق. كانت عيناه على باب بيت آل مهري بيك، وما إن ظهر مهري بيك عند الباب، حتى نهض مسرعاً ونزل إلى

الأسفل، واجتاز الحديقة. وأمام باب الحديقة تقابل الجاران القديمان. وكان مهري بيك أول من بدأ بالكلام:

– وي يا سيدي، أسعد الله صباحكم الشريف يا صارم بيكي. شكراً لمن قابلناه ببعض. أين أنتم يا سيدي العزيز؟..

– أه يا روحي يا سيدي، لا تسألوا أبداً. والله إنكم على حق، أرجو عفوكم. لقد قصرنا في زيارتكم.

نُسيت الخلافات كلها، ودعا صارم بيك جاره إلى العشاء، وسوف يلبي آل مهري بيك الدعوة بسرور.

خرج صارم بيك إلى الطريق، وذهب من فوره إلى سمسار عقارات كبير في حي تقسيم، وأخبره بأنه يريد بيع بنايته الكائنة في حي نيشان طاش.

– كم طابقاً هي يا سيدي ؟

– أربعة طوابق. وكل طابق يتألف من أربع غرف وصالون..

أعطى السمسار كل ما طلبه من معلومات، ثم ذهبا سوية وشاهدا البناية. ولما سأله السمسار بكم ليرة نبيع إذا عثرنا على مشترياً يا سيدي؟

كان صارم بيك يفكر بمئتي ألف ليرة. وما كان يأمل أن يدفعوا له هذا المبلغ. إلا أنه تجاه كل احتمال، ولأنها قد تساوي أكثر قال:

– والله ليست لدي أي فكرة عن أسعار البنايات.

ولأن البيع بسعر غالٍ من مصلحة السمسار، ولأن عمولته تزداد كلما ارتفع سعر المبيع، تساءل:

– هل يناسبك بيعها بثلاثمئة ألف ليرة؟

– نعم مناسب..

أخذ السمسار عنوانه، وغادره صارم بيك. وبعد الظهر جاء مهري بيك إلى السمسار نفسه، وقال:

– أريد شراء بناية.

– حسناً يا سيدي، في أي منطقة تريدونها؟

– في عثمان بيك، في نيشان طاش.. في تلك الأنحاء.

– كم طابقاً؟

_ أربعة طوابق تكفي.

– توجد بين أيدينا بناية بالمواصفات التي تريدونها. نراها الآن فوراً إن شئتم.

– لا وقت لدي الآن. آتيكم غداً في الساعة الرابعة.

خرج مهري بيك مغادراً. وعاد إلى كشكه عند المساء، وذهب جميع من في الكشك ضيوفاً على آل صارم بيك. وسرت العائلتان سروراً كبيراً. تحدثوا عن أشياء كثيرة تلك الليلة، تحدثوا عن وحدة ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية، وعن

قلة وسائط النقل في استانبول وعن كيفية هرس الباذنجان لصنع المتبل. وعن موسم صيد سمك اللوفر في الخليج. تحدثوا عن كل شيء. وعندما غادر آل مهري بيك كشك جيرانهم بعد منتصف الليل دعوا آل صارم بيك إليهم في الليلة التالية.

وفي اليوم التالي مرَّ صارم بيك على السمسار ليسأل عن وجود مشترٍ أم لا، فأجابه السمسار:

- عثرنا على مشترٍ يا سيدي، غداً أعطيكم النتيجة.

خرج صارم بيك من عند السمسار والأمل يحدوه. وفي الساعة السادسة عشر من ذلك اليوم حضر مهري بيك لعند السمسار، وذهبا سوية وشاهدا البناية، ثم سأل مهري بيك:

- ما هو سعرها؟

ولأن ارتفاع سعر المبيع من مصلحة السمسار، أجابه:

- مالكها يطلب ثلاثمئة وخمسين ألف ليرة.

رأى مهري بيك هذا السعر مقبولاً، لكنه بأمل الحصول عليها بسعر أرخص قال:

- كثير..

- أكلم مالكها يا سيدي، شرفوني غداً أعطيكم النتيجة.

ذهب آل صارم بيك إلى آل مهري بيك تلك الليلة. أكلوا وشربوا وتحدثوا. تحدثوا عن أبصال اللّيلا، وعن تطعيم الورود، وعن موضة التنانير النسائية، وعن السعر الأخير للنقد، تحدثوا في السياسة الداخلية وفي السياسة الخارجية. وعن أنجع سموم الفئران. تحدثوا عن كل شيء. وحين مغادرة آل صارم بيك كشك جيرانهم دعوا آل مهري بيك إليهم في الليلة التالية.

وفي اليوم التالي حضر صارم بيك أولاً لعند السمسار، ولم يكونا قد تكلما بضع كلمات وإذ بالكاتب يغمز السمسار بعينه، فقال السمسار لكاتبه:

- خذه إلى الغرفة الأخرى!

كان مهري بيك هو المأخوذ إلى الغرفة الأخرى. وكان جدار رفيع يفصل بين بائع البناية وشاريها، كانا في غرفتين متلاصقتين. صرف السمسار صارم بيك أولاً، ثم تحدث إلى مهري بيك.

اجتمعوا عند آل صارم بيك تلك الليلة. أكلوا وشربوا وتحدثوا، تحدثوا عن قلة تربية شبان هذه الأيام، وعن مباراة كرة القدم بين نادي غالاطاسراي ونادي فنرباهجة، وعن عدم مرور الزّبّال على البيوت، وعن تردّي نوعية سجائر كلينجك، وعن فيلم محلي. تحدثوا في كل شيء، وحين مغادرة آل مهري بيك كشك آل صارم بيك حوالي منتصف الليل دعوا جيرانهم للعشاء عندهم في الليلة التالية.

استمرت صداقة الجارين القديمين هكذا مدة شهرين. وكان كل منهما يذهب يومياً إلى السمسار. وكان يحدث أن يذهب إليه الإثنان في وقت واحد، وعندها ولكي لا يتقابلا كان السمسار يأخذ كلاً منهما إلى غرفة مغايرة، لأنه عندما اطلع على عنوان كل منهما عرف أنهما جاران يسكنان في كشكين متجاورين في سرير الجوز.

كانت العائلتان تجتمعان في أحد الكشكين، تأكلان وتشربان وتتحدثان، تتحدثان في كل شيء.

دون أن يلتقيا، وبوساطة السمسار اتفق صارم بيك ومهري بيك، وستباع البناية بثلاثمئة وعشرة آلاف ليرة، وسيأخذ السمسار إثني عشر ألفاً وخمسمئة ليرة عمولة من البائع والشاري بنسبة إثنين بالمئة من كل منهما.

لم يتقابل صارم بيك ومهري بيك كبائع ومشترٍ إلا في دائرة السجل العقاري، تم التنازل، دفع الثمن، وحان دور دفع عمولة السمسار، فقال مهري بيك:

- أليس عيباً يا أخي، أما كان بإمكانك ألا تضطرني إلى دفع هذا المبلغ للسمسار؟ نحن سوية ليلاً نهاراً وأنت لا تتوقف عن الثرثرة، لماذا لم تقل أنك ستبيع البناية؟.

وبعد أن دفع صارم بيك عمولة السمسار التفت إلى مهري بيك قائلاً:

– عيب عليك أنت، استحِ!.. تفرفر وتثرثر كل ليلة، ولا تتوقف عن الكلام ولك قل مرة إنك تريد شراء بناية!.. أليس حراماً ضياع هذا المبلغ؟

ومنذ ذلك اليوم تخاصم الجاران القديمان خصاماً لا صلح بعده، وراح كل منهما يتقول على الآخر، ويتكلم عنه كلاماً لا يليق.

* * *

هيا يا شباب

١٢

الذباب، البعوض، الفسفس، هذه الأشياء لا وجود لها هناك، فهي منطقة صيفها ربيع، وربيعها مثل الشتاء. لم أر شتاءها، لذلك لا أعرف كيف هو. دعانا إلى تلك القرية إبراهيم آغا. على ظهور الخيول، في طريق جبلي متعرج، بين المروج الخضر صعدنا وصعدنا. هي هي.. هناك وفوق الحصان يظن المرء نفسه مارداً عملاقاً، فكلما التفَّ ودار واجتاز التلال الخضراء صاعداً نحو القمة طالت قامته وعرض كتفاه وانتفخ صدره. حتى ليكاد يمد يده إلى السحب البيضاء فيمسح بها أنفه وكأنها منديل، لكن هذا يحدث لكم فقط، أما من حولكم فلا يحدث لهم أي شيء. فكل من عداكم يبقى على ما هو عليه. تداخلني رغبة عارمة في أن أصيح ـ ولك انقلعوا !

ليس أمامي مَنْ أصيح فيه، ولكن ليكن إنها رغبة تداخلني.. هل أصيح في الجبال؟ أحسست أني لا أستطيع الإمساك بنفسي فرحت أغني بصوت عال.

كنا نحن الموظفين الأربعة ودليلنا القروي خمسة خيَّالة، تحدثنا في البداية من هنا وهناك، ثم بدأ أحد الزملاء يحدثنا عن إحدى معاركه، مع أنه ليس ممن يستطيعون العراك، فهو ناحل شديد النحولة إذا هبَّت عليه ريح ترميه أرضاً، يزن خمسين كيلوغراماً أو أقل. فيما كان عائداً إلى بيته في إحدى الليالي برز له أحدهم واعترض طريقه. بدأ يعارك الرجل. هو يحكي ونحن على خيولنا نتسلق الطريق الجبلي. و الزميل يكحي ويحكي. وفيما كان الذي اعترض طريقه شخصاً واحداً صارا إثنين. سدّد لكمة لأحدهم وركلة للآخر..

حصاني يكبو بين حين وآخر. والجداول والأنهار التي تجري من تحتنا تبدو لنا وكأنها حبل رفيع. أما قطعان الماعز التي ترعى في السفوح التي تحتنا فكانت كل عنزة منها تبدو لنا وكأنها حشرة. كلما صعدنا كنا نكبر، وكلما كبرنا كان كل شيء ما عدانا يصغر.

الزميل ما زال يحكي، وفي كلامه صار أولئك الرجال ثلاثة. وراح يزيد عدد الذين اعترضوا طريقه كلما صعدنا في الجبل وارتفعنا. برز له واحد آخر، فصاروا أربعة أشخاص. هجم عليه الأربعة سوية، ضربة لهذا وضربة لذاك، ضربة للآخر.. الجميع على الأرض.

نصعد ونرتفع، وتبدو بعض القرى في الأسفل بين فينة وأخرى، قرى صغيرة، خذها واعمل منها أضمومة علقها على عروة سترتك.. وينتابني شعور بأني تطاولت وصرت عملاقاً بحيث لو مددت قدمي وخطوت خطوة لاجتزت هذه القمة إلى القمة المقابلة.

الزميل مازال يحكي، ثم يا أخي فيما كان الذين اعترضوا طريقه أربعة صاروا خمسة. فسأله زميل آخر:

– ألم تكن تحمل مسدساً أو غيره؟

– طبعاً كان لديَّ مسدس، ولديَّ سكين، ولديَّ خنجر، ولديَّ مشرط..

الزميل ينقصه مدفع، ولو صعدنا أكثر قليلاً فسوف يقول: «لدي أيضاً بطارية مدفع عيار ٤٢ مم»

– طيب، أشهر مسدسك.

– ما هذا الذي تقوله، هل أتنازل وأشهر مسدسي على خمسة أو عشرة أشخاص؟ ولأي يوم أحتفظ بقبضتي؟ وضعتهم تحت قدمي، يا سيدي..

يستمر صعودنا وروائح الأشجار والنباتات العطرية الفوَّاحة تلفنا.. تداخلني بين الحين والآخر رغبة عارمة في أن أصيح «ولك انقلعوا !.. ».

وأظن أني لو صحت صيحة واحدة لوقعت الطيور الطائرة على الأرض من شدة صوتي. لذلك كنت أجاهد نفسي كيلا أصيح.

الزميل ما زال يحكي. ثم برز من الظلام خمسة أشخاص آخرون، صار هؤلاء عشرة أشخاص.. فصرخ بهم زميلنا:

- ولك لا تهاجموني واحداً واحداً، إن كنتم رجالاً تعالوا مجموعة مجموعة، تعالوا طابوراً طابوراً !..

هجم عليهم وراح يطوّح بمن يمسك به فيطيره في الهواء، ثم صار هؤلاء خمسين شخصاً.. قال الزميل:

- عندما صاروا خمسين شخصاً طاب طعم العراك..

ظل يضربهم ويضربهم حتى تورّم الخمسون من شدة الضرب، ثم ساقهم أمامه مثل قطيع الغنم.

انبرى زميل آخر وقال:

- وهل هذا شيء ؟ أنا مرّة.. هكذا بدأ. انزعج في دار السينما فضرب الموجودين جميعاً في تلك الدار الضخمة، ثم ساقهم أمامه وأخرجهم من دار السينما. وتابع مشاهدة الفيلم بمفرده.

وزميل آخر قال:

- أنا مرَّة.. أنقذت طفلاً من الدهس. كان الطفل يلعب على سكة الحديد. نظرت، وإذا بالقطار قادم بأقصى سرعة. سوف يدهس الطفل إن لم أنقذه.

ركضت فوراً، وأسندت صدري على القطار يا أخي.. ثم دفعت القاطرة وألقيت بها. وصفعت السائق صفعتين وصرخت به «أنظر أمامك ولك !.. ».

لم يعترض أحد منا ويقول «جوووش ! » لهذه الأكاذيب، لأن كلاً منا سوف يحكي ويقص شيئاً فيما بعد.

– وهذا لا شيء أيضاً. أنا مرّة.. وبدأت بحكايتي.

الخيول تتسلق الجبال. وكلما صعدنا وارتفعنا أكثر كانت طباعنا تتغير. فلا يعود واحدنا يتنازل ويضرب خمسة أو عشرة أشخاص.

صعدنا وصعدنا، وكذبنا وكذبنا، إلى أن وصلنا قرية إبراهيم آغا. استقبلونا، واستضافونا في غرفة الضيوف، وأجلسونا على طراحات مرتبة فوق بعضها البعض ثلاثاً ثلاثاً أو أربعاً أربعاً. كان فكاي يرتجفان وأسناني تصطك من شدة البرد، وكذلك كان الزملاء.. مع أننا كنا في شهر آب.

ليس في القرية رجل واحد بدين ذو كرش. كانوا كلهم جساماً، ساعد أحدهم يساوي سواعد ثلاثة منا. هم ناحلون لكن عظامهم خشنة، إنهم رجال كالأعمدة.

تناولنا طعام العشاء في بيت إبراهيم آغا. صُفّت أربع صوان كبيرة على المائدة، وجلس الكبار والصغار حول الصواني. ستة وثلاثون شخصاً بالتمام، وكلهم من نسل إبراهيم آغا. فهو جدٌّ لثمانية وعشرين حفيداً فقط، وما إن ينادي إبراهيم آغا: محمد ! حتى يهب أربعة أو خمسة منهم ويقولون:

- حاضر يا جدي تفضل..

إبراهيم آغا رجل طاعن في السن، ومصاب بشلل جزئـــي في أحـد جانبيـه. لذلك هو ثقيل النطق نوعاً ما، ويجرُّ إحدى ساقيه جرّاً أثناء سـيره ولأنـه لم يعـد يذكر أحفاده، لذلك يناديهم باسمي محمد وأحمد.

بتنا في غرفة الضيوف تلك الليلة. وفي اليوم التالي أخذونــا إلى رأس النبـع، حيث شووا لنا كبشاً. أكلنا وشربنا.. لكن الطقس كان بـارداً بالنسـبة لنـا، فكنـا نرتجـف وتصطك أسـناننا مـن ناحيـة، ومـن ناحيـة أخـرى كنـا نخـترع ونلفـق الأكاذيب قائلين:

- أنا مرَّة..

- أنا مرَّة..

في صباح اليوم الذي سنغادر فيه القرية قال أحد الزملاء:

- لا بد من وجود مسألة دم وأحداث دموية بين هؤلاء وبـين أهـالي القـرى المجاورة.

كنا جميعاً نعتقد هذا الاعتقاد فأصـابع المـرء تجتاحـها رغبـة في أن تفعـل أشياء كأن تطبق على خناق أحدهم، أو تمزق أحدهـم. الإنسـان هنـا يظـن نفسـه وحشاً.

كنا سنلتقي في المقهى، ومنها سوف نخرج إلى الطريق. وصلنا المقهى وكان القرويون كلهم هناك، وبعد قليل وصل إبراهيم آغا وهو يجرّ ساقه..

سأله أحد الزملاء قائلاً:

- أتوجد مسألة دم بينكم وبين أهالي القرى المجاورة يا ابراهيم آغا؟

- لا، لا توجد، ناسنا هنا لا يعرفون مسائل الدم، الشكر أن مثل هذه الأمور السيئة ليست من عاداتنا.

وفيما كنا نتبادل الأحاديث من هنا ومن هناك قال إبراهيم آغا:

- لكن هناك شجارات بيننا، إنما منذ زمن بعيد.. أما الآن فقد تصالحنا. هناك قرية تبعد عنا مسيرة ساعتين بالخيل. في صغري ساءت العلاقات بيننا بسبب المرعى، فقد تسلطوا على مرعانا ومنعوا مواشينا من الرعي فيه. وعندما سمع جدي رحمه الله، ذلك، شوف.. شوف.. كنا أيضاً في هذه المقهى، صاح منادياً:

- مالكم واقفون؟ تسلحوا يا شباب!..

تسلحنا جميعاً وامتطينا صهوات الجياد، كنت يومها في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمري. لكزنا الجياد بأرجلنا. نظرت وإذ بأمي تسبقني. هويت بالسوط على حصاني، فخلّفت أمي خلفي. وهي وإن صاحت: ابقَ في الخلف يا بني!. إلا أنني لم أستمع إليها. نظرت ثانية، وإذ بأمي تسبقني مرة أخرى.. خلاصة القول، التقينا بهم في إنكلربل. هم أيضاً كانوا مسلحين ومتجهين نحونا.

اصطدمنا ببعض في السهل. ودارت بيننا معركة عنيفة سقط فيها منا ستة شبان، وسقط منهم عدد أكبر. وكان من نتيجة هذه المعركة أن اقتسمنا المرعى تلك السنة. وفي السنة التي تلتها نشبت معركة أخرى بسبب هذا المرعى أيضاً. ولم نفقد أحداً بينما سقط منهم ثلاثة شبان.

استمرت الصدامات بين أهالي القريتين أربعة أعوام ثم توسّط المسنُّون بيننا فتصالحنا. وعلى إثر هذا الصلح طلب شاب منهم فتاة منا، أعطيناه إياها. أقيم العرس في قريتهم، وكان الاحتفال يقام في ساحة القرية نهاراً، وفي بيت كبير ليلاً. وكانت الغجريات ترقصن في الوسط. أثناء ذلك طلب شاب منا أغنية من المغنية، فقال شاب من تلك القرية:

- سوف تغني الأغنية التي طلبتها أنا أولاً..

ما إن سمع جدّي ذلك حتى صاح:

- مالكم واقفون يا شباب؟ هيا تحركوا!..

امتدت أيدينا إلى الأسلحة ودار قتال عنيف بيننا، خسرنا شابين أما خسائرهم فكانت كثيرة.

الشكر أن دعاوى الدم ليست من عاداتنا هنا، ثم يا ولدي تدخل المسنُّون بيننا فتصالحنا أيضاً. وفيما كنا جالسين في هذه المقهى ذات يوم دخلت امرأة وصاحت:

– هي. هيا احلقوا شواربكم وصيروا راقصات. مالكم واقفون ؟ لقد حوّلوا ماء الجدول إلى أراضيهم!..

كان جدّي قد ارتحم حينها. فما كان من والدي الذي سمع ذلك إلاّ أن صفع المرأة على وجهها صفعتين وصاح بمن في المقهى:

– هيا يا شباب !..

كانت صيحة كالرعد.. نهضنا جميعاً فتسلحنا وركبنا خيولنا واتجهنا نحوهم. هاجمناهم في قريتهم. تعاركنا طويلاً وتقاتلنا قتالاً عنيفاً..

وكانت المرحومة زوجتي ممسكة بعصا في يدها داخلة وسط المعركة، ولك أمان.. فقدنا أربعة شبان، أما هم فقد فقدوا عدداً لا يحصى. حوّلنا مجرى جدول الماء نحو أراضينا. وفي السنة التالية ألا يحوّلون المجرى نحو أراضيهم ثانية؟ هيا يا شباب.. استمرت مصادماتنا خمس سنوات بسبب ماء الجدول هذا. أخيراً اتفقنا على تحويل المجرى يوماً نحو أراضيهم ويوماً نحو أراضينا.

الشكر أن دعاوي الدم ليست من عاداتنا هنا.. ثم يا بني وفيما كنا جالسين في هذه المقهى ذات يوم سمعنا بأنهم حملوا فؤوسهم ودخلوا الغابة التي نحتطب منها، وأعملوا فؤوسهم بأشجارها، كان والدي قد ارتحم حينها، فصرخت عندما سمعت ذلك:

– أما زلتم واقفين ؟ تسلّحوا يا شباب !.. خرج الخيّالة إلى الطريق فوراً وعدونا مسرعين نحوهم، فوصلنا إليهم واصطدمنا بهم في ألدوز، وكانت معركة حامية بيننا. سقط منا عشرة شبان، وسقط منهم عدد لا يحصى.

طردناهم من غابة الحطب. وفي السنة التالية دخلوا الغابة ثانية.. استمرت معاركنا هذه سبع سنوات، ثم دخل المسنُّون ووفقوا فيما بيننا.. فقسمنا الغابة قسمين، ومن يومها والعلاقات جيدة بيننا فلا خلاف ولا قتال. أما دعوى الدم فهي ليست من عاداتنا هنا أبداً..

وفيما كنا نهمُّ بركوب خيولنا ومغادرة القرية وإذ بأحدهم يقبل نحونا راكضاً وهو يصرخ:

– هل سمعتم أم أنّ رصاصاً صُبَّ في آذانكم ؟ لقد صوّت أهل بيناز لحزب الشعب.

ما إن سمع ابراهيم آغا المشلول ذلك حتى هبَّ من مكانه كالسهم وصاح صيحة اهتز لها زجاج نوافذ المقهى:

– ماذا ؟ هل صوّتوا لحزب الشعب؟ ولك.. تحركوا يا شباب!.. لا تقفوا، أسرعوا إلى السلاح!.. الشجاع فليمش!..

إبراهيم آغا الذي كان يجرُّ ساقه جرّاً قبل قليل، راح يقفز قفزاً مثل الحجل وهو يغادر المقهى. ومن داخل المقهى راحت تتردد النداءات:

- هيا يا شباب!.. تحركوا يا شباب!.. إلى السلاح يا شباب!..

وفي مثل لمح البصر عجّت الساحة بالخيالة. إبراهيم آغا في المقدمة وخلفه أولاده وأحفاده حتى الذين في سن العاشرة وقد امتطوا صهوات خيولهم.. النساء والرجال جميعاً على ظهور الخيل، صاح إبراهيم آغا:

- هيا تقدموا!..

حتى دليلنا الذي سيدلُّنا على الطريق، ذهب معهم للقتال. امتطينا نحن الموظفون الأربعة كذلك صهوات جيادنا وخرجنا إلى الطريق، كنا نرتجف وأسناننا تصطكُّ من شدة البرد، سرنا فترة من الزمن بدون صوت، ثم سألت الزميل الذي ساق خمسين شخصاً أمامه:

- ثم ماذا حدث؟ ماذا فعلت بالخمسين شخصاً؟

- أكاد أتجمد، أكاد أتجمد يا..

- ماذا حلَّ بالخمسين شخصاً ؟

- لم أقل خمسين، قلت عشرة أشخاص..

سألته ثانية عندما نزلنا من الجبل ووصلنا إلى السهل، فقال:

- خيِّل إليَّ هكذا في الظلام، كانوا خمسة أشخاص.

فقال الزملاء الآخرون:

– إنك تبالغ..

– لا، والله إني لا أبالغ، لقد برز لي في الظلام شخص، لكني لست متأكداً فيما إذا كان يقصدني، أم كان له قصد آخر.. وعندما أسرعت الخطا مبتعداً عنه وقف مكانه يتابعني بنظراته.

بقيت الصنابير مفتوحة

١٣

قدمت إلى استانبول في إجازة لمدة شهر، وإذ ببرقية تصلني من جاري القاطن في الطابق الذي تحت بيتي في أنقره:

«تركتم الصنابير مفتوحة»

أنا واثق تماماً أني لم أترك أي صنبور مفتوحاً عندما غادرت البيت. كان مثل هذا يحدث بين حين وآخر. إذ تنقطع المياه، وأنسى الصنابير مفتوحة، وفي الليل عندما تأتي المياه، كان البيت يتحول إلى بحيرة، ومنه كانت المياه تتدفق إلى الطابق الأسفل.. لذلك عمدت حين مغادرتي البيت إلى التأكد من إغلاق الصنابير كلها. أضف إلى أنه لا يمكنني العودة إلى أنقره لأن الصنابير بقيت مفتوحة..

أرسلتُ برقية جوابية:

«أرجوكم أن تكلفوا صانع أقفال بفتح باب بيتي وأن تتكرموا بإغلاق الصنابير»

مرت فترة تقارب الخمسة عشر يوماً، وإذا ببرقية تصلني من صاحب البناية هذه المرة:

«تركتم الصنابير مفتوحة»

إذا كان الأمر مزاحاً فهو مزاح لا طعم له.. كيف يمكنني قطع إجازتي السنوية لأن الصنابير بقيت مفتوحة؟ ولا شك أن المياه لا تتدفق منذ خمسة عشر يوماً.. فلو كان الأمر كذلك ؟ لأغرقت المياه أنقره كلها، ولكتبت الصحف عن ذلك.

لا يوجد هاتف في البناية. أرسلت برقية عاجلة.

«أرجوكم أن تكلفوا صانع أقفال بفتح باب بيتي، وأن تغلقوا الصنابير، مع تقديري..»

مر أسبوع آخر، وردتني هذه المرة برقية من مختار الحي:

«تركتم الصنابير مفتوحة»

هل تركت صنبور الغاز مفتوحاً يا ترى؟ لكن لو كان الأمر كذلك، فلماذا يرسلون لي برقية ؟ بإمكانهم قطع الغاز من ساعة الغاز الموجودة خارج البيت.. أرسلت برقية عاجلة إلى المختار أيضاً:

«أرجو أن تكلفوا صانع أقفال بفتح باب بيتي، فإن لم يكن فاكسروه وادخلوا وأغلقوا الصنابير، مع تقديري »

انتهت إجازتي وعدت إلى أنقره، الصنابير التي في بيتي مغلقة كلها، لكن المفروشات والحاجات التي على الأرض كانت مبللة.. عاينت قفل الباب، لا أثر للعنف عليه، لم يُخلع ولم يُفتح.. جيراني في هذه البناية التي أسكنها منذ أربع سنوات كانوا يحبونني جداً، لكنهم ومنذ عودتي من استانبول راحوا ينظرون إليّ نظرات ازدراء.

وفي إحدى الأمسيات قال لي جاري الذي يسكن في الطابق الذي تحت بيتي، والذي قابلته عند رأس الدرج:

- ما كنا نتوقع منك مثل هذا أبداً..

ودخل بيته قبل أن تتاح لي فرصة إجابته.

كذلك أرسل لي صاحب البناية رسالة مسجلة يقول فيها:

«من الأفضل أن تترك بنايتنا التي تسكنها العائلات »

أما المختار الذي صادفته فقد قال دون أن يلقي التحية:

– صار شرف حيِّنا يساوي قرشين..

قال هذا وتابع سيره.

عندما كنت ذاهباً في إجازة إلى استانبول، قال لي أحد الزملاء الموظفين في الوزارة:

– أنت مغادر على أية حال، أعطني مفتاح بيتك فإني أعاني ضيقاً في المكان..

هو زميل، ولا يمكن كسر خاطره. لكني رجوته وأنا أسلمه أحد المفاتيح، أن يكون حذراً من الجيران عندما يصطحب معه صديقة إلى البيت.

جاء زميلي يعيد إليَّ المفتاح، وعندما قلت:

– لا تكن أنت الذي تركت الصنابير ؟..

قاطعني قائلاً:

– آه لا تسل..

وراح يقص علي ما جرى:

عندما علم رئيس قسمنا بوجود مفتاح بيتي مع صديقي راح يتوسل إليه: <<آه يا صديقي، لقد احترقت، إنها امرأة من عائلة شريفة جداً، ولأنها متزوجة فهي لا ترضى بالفنادق.. أتوسل إليك >>

رئيسنا يخاف من زوجته، وامرأة العائلة تخاف من زوجها، لذلك ما إن حلَّ الظلام حتى قدما بالسيارة وتسللا إلى بيتي مثل شبحين، وفيما كانا يهمان بمغادرة البيت قبل انبلاج الفجر لكي لا يراهما أحد، مدَّت المرأة يدها إلى صنبور الماء، لا ماء في الصنبور.. ولارتباكها تركت الصنبور مفتوحاً وغادرا البيت.. وتدفقت المياه غزيرة من الصنبور طوال اليوم.

في ذلك اليوم أرسل لي الجيران الذين تحت بيتي برقية. وعندما وصلتهم برقيتي العاجلة في اليوم نفسه اصطحبوا معهم المختار واثنين من الجيران مع صانع الأقفال، ففتحوا باب البيت ودخلوا فأغلقوا الصنبور وخرجوا. وبعد عدة أيام جاء صديقي الذي أخذ مني المفتاح مصطحباً معه امرأة إلى بيتي. ولكونهما مخمورين، أحسّا بالعطش ليلاً، هيا إلى الصنبور، ولكن لا ماء في الصنبور.. ولسكرهما تركا الصنبور مفتوحاً. كذلك تدفقت المياه غزيرة ذلك اليوم، ونزلت إلى الطوابق السفلى، لكن الوضع اختلف هذه المرة، فأنا لست موجوداً في البيت، وقد دخل الجيران وأغلقوا الصنابير، إذن، كيف تسيل هذه المياه ؟ داخل صاحب البيت شك فأرسل لي البرقية الثانية.. وعندما استلموا جوابي، اصطحبوا معهم هذه المرة شرطيين من مخفر الحي، ففتح صانع الأقفال الباب، ودخلوا فأغلقوا الصنابير، ولكي لا أدَّعي مستقبلاً بأني تعرضت لأي ضرر أو أذى، نظموا محضراً بذلك جاء فيه:

«إن الأشخاص الفلانيين وبحضور رجال الشرطة قد جعلوا صانع الأقفال يفتح الباب فدخلوا وأغلقوا الصنابير ثم خرجوا وقفلوا الباب».

ولكن بعد بضعة أيام عندما راحت المياه تتدفق غزيرة على الطوابق السفلى آآآ ما هذا ؟ دهشوا وحاروا.. فمنهم من قال بأن في البيت جني ماء، ومنهم من قال بأن البيت مسكون بأشباح، ومنهم من قال بأن لصّاً اعتاد التردُّد عليه.. أرسل لي المختار البرقية الثالثة، وبما أن برقيتي الجوابية العاجلة وصلته ليلاً، فقد اصطحب المختار مالك البيت وبعض رجال الشرطة والجيران وصانع الأقفال وتدافعوا نحو بيتي، ولان المياه كانت منقطعة عن المدينة في تلك الساعة، فإن المياه لم تكن تتدفق من الصنابير، ولكن عندما تُفتح المياه في الصباح فلا بد أنها ستتدفق من صنابير بيتي.. وكان رئيس قسمنا وعشيقته امرأة العائلة الشريفة المتزوجة قد تسللا إلى بيتي قبل قليل مثل شبحين، وهما يدوسان على أطراف أصابع أرجلهما، وقلباهما يدقان فزعاً من أن يكون أحد ما قد رآهما أو سمعهما.. الستائر مغلقة بإحكام، وهما يشربان ويبثان بعضهما الهموم.

قالت المرأة تشتكي من زوجها الفظ:

- إنه لا يفهم نفسيتي.

فأجابها رئيس قسمنا مشتكياً من زوجته!

- وزوجتي لا تفهم نفسيتي يا سكرتي، يا روحي..

- كم أنا خائفة..

- لا تخافي فأنا موجود يا سكرتي..

- هل أثق بك؟

– ثقي بي.. إلى الأبد..

في هذه اللحظة عندما راح صانع الأقفال يعالج قفل الباب، حار العاشقان فيما يفعلان. فصاحت المرأة هلعة:

– أواه لقد ضبطنا إنه زوجي!..

– زوجك لا يهم، أما إن كانت زوجتي فقد احترقنا كلانا.. تُقطعنا إرباً..

– آه، كنت أعرف أن هذا سيحدث! صار شرفي بقرشين..

– ولك اتركي شرفك الآن، والبسي!.. أين قبعتي؟

– هل ستلبس قبعتك قبل أن ترتدي بنطالك ؟ البس حذائيك أولاً!..

– لقد محقت..

– اترك ذاك، فذاك كلسوني.. آه هذا قميصي الداخلي، لا تشدّه هكذا، سوف تمزقه..

– لقد ضبطنا.. إنها السافلة زوجتي..

– إنه السافل زوجي وسوف ترى.. اترك حمالة صدري..

– أين عكازي؟ لا أكون قد نسيتها في الدائرة، أف..

– دع عكازك الآن، والبس كلسونك.

– لا شك أني لن أرتدي العكاز يا روحي، بل سأهجم بها عليهم!.

– هذا جوربي، إنك تلبس جوربي..

– أين نظاراتي، أرأيت ؟ إني أكاد لا أرى بدون نظارات.. ولِك اتركي ربطة عنقي.

– ولِك؟ ماذا قلت؟ هل قلت ولِك؟ لكنك قبل قليل لم تكن تتكلم هكذا.. كنت لا تفتأ تردد يا حلوتي، يا سكرتي، ياروحي..

– دعك من البكاء والنواح الآن، وهيا لملمي نفسك بسرعة..

– وماذا سيكون غير ذلك، أيمكن أن يكون هناك خير للإنسان في رجل غريب؟ لقد خدعتني يا عديم الشرف.. يا سافل !.

– هيا ارفعي صوتك أيضاً، ارفعي صوتك وليسمع زوجك ذو القرون، قد يصفح عنك، لكنك أنت التي خدعتِ أبا عائلة نظيف مثلي، لقد خربتِ بيتي.. كم الساعة يا ترى؟ لقد تأخرت عن وظيفتي أيضاً.. إن سمع الوزير فإنه يطردني والله..

وفيما هما في هذه المشادّة، فتح صانع الأقفال الباب، وولج الجميع إلى داخل البيت بصحبة ثلاثة شرطيين، وكان المختار ومالك البيت يظنان أني أنا من في الداخل، ولما رأيا غريباً أمامهما صاح المختار:

– لص!..

تنحى رجال الشرطة جانباً لما سمعوا كلمة لـص، مفسحين المجـال للـص لعلّه يفر من باب البيت بسلام.. ثم ثاب المختار إلى رشـده فتمـالك نفسـه وصـاح برئيس قسمنا:

– من أنت، ماذا تفعل هنا ؟ سوف أريك الآن!

ثاب رئيس قسمنا أيضاً إلى رشده، ولكن وقبل أن يرتدي بنطاله هجم علـى المختار وهو يصيح فيه:

– أنا من سيريك الآن..

وبعد أن عرف كل واحد الآخر، اتفقوا على حلاوة الصلح.

شرح لي صديقي هذا كله، ثم أعاد إلي المفتـاح، فأعطيتـه أنـا أيضـاً حزامـاً ومشدّاً نصف ممزق وجدتهما تحت السرير، وقلت:

– وهذه الأشياء لرئيس قسمنا ولعشيقته، لقد نسياها هنا..

ولكي أنقذ شرف البيت، اضطـررت بعـد هـذه المشـكلة للانتقـال إلى بيـت آخر.

تمزق البدلة الرسمية صوته مختلف

١٤

هذه الحادثة التي سأرويها كان يمكن أن تحدث لأي واحد منا، وهذه الحادثة التي كان يمكن أن تحدث لأي واحد منا قد حدثت لواحد منا. وهذا الواحد كان من ذوي الدخل المحدود.

كان بطل قصتنا ذو الدخل المحدود، يملك بدلة واحدة فقط. وعندما يملك الشخص بدلة واحدة فقط، فإنه لا يفكر باللباس الصيفي، إنما يفكر باللباس الشتوي، وهكذا كانت بدلة صاحبنا شتوية، وعندما يقبل الصيف كانت هذه البدلة الشتوية العتيقة التي قُلبت على وجهها الآخر قبل ثلاث سنوات، تُطوى وتُرفع بعد وضع النفتالين بين طياتها. وفي حرّ الصيف كان صاحبنا ذو الدخل المحدود يروح ويغدو إلى مكان عمله

ببنطال من الكتان، وبقميص بنصف كم. لكن الوضع اختلف في الصيف الماضي عندما أصدرت وزارة الداخلية تعميماً – وكنا قرأناه في الصحف – إلى كافة موظفيها. وكان التعميم يقضي بأن يكون الموظفون القائمون على رأس عملهم «بهندام جدِّي ورسمي »

ما هو الهندام الجدي؟

إنه سترة مقفلة الأزرار الأمامية، وربطة عنق تقعد عقدتها فوق الحلق.. وما أجمل اسم «رسن المدنية » الذي أطلقه الشعب على قطعة القماش الغالية الثمن التي لا تنفع في شيء، والمعروفة بربطة العنق.

راح الموظفون يتناقشون عندما وصلهم التعميم:

– وزير الداخلية على حق. فهو يريد أن يجعل طرفي قبّة الموظفين في طرف واحد.

– هذا الأمر لا يكون بربطة عنق، حتى بطّال غازي [1] لا يستطيع جعل طرفينا في طرف واحد.

– وأنت لديك قبة يا أخي.. ماذا يفعل الوزير بتلك القبة؟

– كنا في المقهى الليلة الماضية. وإذ بأحد القبضايات يقف وسط المقهى ويصيح: «هل من قبضاي يلوي ساعدي ؟ ليخرج الرجل منكم إلى الوسط! »

[1]) بطل من أبطال القصص الشعبي التركي على غرار " أبو زيد الهلالي "

وكـانت المقـهى تعـج بالرجـال لا أنقصـهم الله.. راحـوا يتبـارون في <<لَـيِّ الساعد>> وأي ساعد للرجل يا أخي؟ إنه ليس بساعد، إنه مقـص قطـار. مـا إن يمسك بيد أحدهم حتى يلصقها على رخام الطاولة. لم يتمكن الرجال الذين تعج بـهم المقـهى مـن لِيِّ سـاعد القبضـاي. ثـار دمـي فصرخـت: <<انظـر إلى هنـا يـا صديقي>> فصاح بي الجالسون معي <<أماناً أفق لنفسك هذا ليس ممن تعرفـهم. إنه بطل ألعاب قوى، هذا يقيدونه بالسلاسل فيكسر السلاسـل.. يوقـف بـإحدى يديه سيارة منطلقة!>> كانت عيناي قد دارتا في محجريهما.. فهل يهمني بطل ألعاب قوى أو بطل ألعاب موى.. اقترب مني القبضـاي متبخـتراً، وكمـن يبصـق بطرف فيه الأيسر قـال: <<ومـا بـك؟>> فسـألته: <<هـل أنـت قبضـاي؟>> فسألني: <<أما أعجبك؟>> سألته: <<هل أنت رجـل؟>> فأجـاب: <<بـإذن الله>> ظن الزملاء الذين في المقهى أنني بدلاً من الانتحـار بسـبب عـدم تحملـي ضيق العيش فضلت أن أموت بين ذراعي أحد القبضايات. قلت للقبضاي: <<أنـا من ذوي الدخل المحدود يا صديق، أقبض كل شهر تسعمئة وثلاثـين لـيرة، لَـيِّ الساعد ليس مسألة. إن كنـت بطـلاً فـاجعل طرفي قبـتي هـاتين في طـرف واحـد لأقتنع بذلك.>>

وإذ بالرجل ليس ممن يفهمون المزاح فقد قال فوراً:

<<ضع عشر ليرات وأنا أضـع مئـة لـيرة!>> الجميـع ينظـرون إلينـا ولا مجال للتراجع. وكنّا قد قبضنا الراتب ذاك اليوم. طارت عشر ليراتنـا. فلـو قلـت له: <<كنت أمزح يا صديق>> فإنه سـوف يسـحقني. أخرجـت عشر لـيرات،

وأخرج القبضاي مئة ليرة. ولكي لا يحدث أي تحايل أو تلاعب سلّمنا النقود للقهواتي ليأخذها من يفوز. صاح القبضاي: «اضبطوا الساعة، وإن لم أضمَّ طرفي قَبَّة هذا الرجل في طرف واحد خلال دقيقة واحدة فأنا لست علي الأسود مولانا قابيلي! » ثم صرخ: «هاااايتْ !.. » وهجم علي، ما رأيكم يا أصدقاء، لم يستغرق الأمر دقيقة احدة، فما إن التحم القبضاي بي وأمسك بتلابيبي، حتى تقطّع طرفا قبة سترتي وصارا في يديّ الرجل. وليت الأمر انتهى هكذا، إذ لم يحتفظ القبضاي بتوازنه فسقط على الأرض مستلقياً على ظهره، ورجلاه في الهواء، ضجت أرجاء المقهى بالقهقهات، وراح القبضاي أيضاً يضحك في مكانه. وإذ بالرجل من الظرفاء، محبي النكتة والمزاح، وقد استغنى عن المئة ليرة ليمازحني. قدموا لي المئة ليرة، لكني كنت منهاراً تماماً، ويداي ورجلاي ترتعد خوفاً، فقلت: «أعطوني ماء أولاً لأستعيد صوابي ». أتعرفون ماذا قال القبضاي ؟ قال: «كنت أعرف ذلك لكني لم أكن أظن أن طرفي قبة سترتك مهترئتان لهذا الحد، حتى بطل العالم إبراهيم هركله لا يستطيع ضمهما في طرف واحد يا صديقي ».

كان يتباهى ظناً منه أنه هو الذي قطع طرفي قبة سترتي، والحقيقة أن هذه السترة المقلوبة على وجهها الآخر، ولكثرة الغسل والتنظيف والكي صارت تبحث عن مبرر، ولسان حالها يقول : «ليت ريحاً تهب علي فأسقط عن كاهل هذا الشخص وأتخلص منه ».

- هل أخذت المئة ليرة؟

- طبعاً، وهل يمكن أن لا آخذها، وشربت ليلتها كأساً من العرق نخب القبضاي.

على كل حال فإن ذي الدخل المحدود الذي هو موضوع حديثنا عمد في منتصف آب إلى إخراج بدلته الوحيدة الشتوية وتهويتها ومن ثم ارتدائها. وماذا يمكنه أن يفعل غير ذلك، فالأمر صادر من مرجع عال، ولو قال «إن الراتب لا يكفي..» سيجيبونه قائلين «إن لم يعجبك الأمر قدّم استقالتك!»

ارتدى صاحبنا زياً جدياً ورسمياً، ولكن الحرارة من جهة، والعمل من جهة، والضيق من جهة أخرى أمور تضافرت جميعها لتجعل الرجل يتصبب عرقاً. والجدية الزائدة مثل بيت النار في الحمام تجعل الإنسان يتعرق. تعرّق ذو الدخل المحدود في الداخل وأصابه برد في الخارج، فمرض، ثم تعافى، مرض ثانية، ففكر بأنه لا يمكنه الاستمرار على هذه الحال فقال «نشرب كأسين من الماء ونقلل الأكل، نلتُّ الخبز بالماء ونأكله مع الملح» وهكذا اشترى بدلة صيفية.

مرّت الأيام وصرنا في كانون الثاني. استيقظ ذو الدخل المحدود صبيحة أحد الأيام ليذهب إلى عمله، نظر إذ لا وجود لألبسته، لا الصيفية، ولا الشتوية.. حتى اللص المشؤوم يكون لديه شيء من الوجدان، أما أنت أيها السافل فهل بحثت وبحثت ولم تعثر إلاّ على بيت موظف ذي دخل محدود لتسرقه؟ لنفرض أنك كنت جائعاً. خذ إحدى البدلتين وبعها وأشبع بطنك بثمنها، لماذا سرقت البدلة الثانية؟..

بقي صاحبنا في البيت.. هرعت زوجته إلى المخفر وأعلمتهم بالحادثة. قالوا يمكن ممكن، نبحث مبحث، نمسكه ممسكه، نلقي القبض ملقي القبض..

بقي صاحبنا سجين بيته، فهو لا يملك مالاً يشتري به بدلة. يومان، خمسة أيام.. وراح زملاؤه في العمل يتساءلون:

<<ماذا حل بزميلنا؟ >>

توجه المدير مع موظفين إلى بيت زميلهم ذي الدخل المحدود. وقصّت الزوجة المسكينة تفاصيل ما جرى لزوجها فصاح المدير والموظفان:

- واخ واخ واخ !.. وأين هو الآن ؟

- في الداخل.

- لماذا لا يخرج إلينا؟

- لا يستطيع.

- لماذا ؟

- ليس لديه ما يرتديه.

- يا سيدتي، نحن لسنا غرباء، فليأت بثياب النوم.

ذابت المرأة خجلاً، وتكورت وانحشرت، فصاحب الدخل المحدود ليست لديه ثياب نوم أيضاً.

اضطر الرجل إلى أن يرتدي فستاناً قديماً من فساتين زوجته، ويخرج به إلى زملائه. وكان صاحبنا ضخماً عريضاً.. فيما كانت زوجته قصيرة، ناحلة.. فكّروا كيف كان فستان السيدة على جسم زوجها الضخم. عندما دخل الرجل الغرفة التي يجلس فيها زملاؤه، كان الفستان الضيق يتفكك، ويتمزق جارت زارت، جارت زارت، بنغمة متزنة في كل خطوة يخطوها.

على المرء «أن يعرف حدوده» وأنت موظف غريب ذو دخل محدود، مالك ولهذا الجسم الضخم!.. مدّ ساقيك على قد بنطالك، وذراعيك على قد سترتك..

راح المدير والموظفان يضحكون لرؤية زميلهم بهذا المنظر، أما ذو الدخل المحدود فكلما ضحك كان الفستان الذي يرتديه يتمزق جارت. المسكين سيضحك مرة واحدة خلال الأربعين سنة، لكن الفستان لا يسمح له بذلك، فلو ضحك ولم يتمالك نفسه فإن هذا الفستان الضيق لكثرة تمزقه وتفككه سوف يسقط نهائياً عن جسمه، وسوف يتركه عارياً في الوسط كأنه يقدم مشهد عري.

الضيوف يضحكون ويضحكون.. وضحك البسطاء يكون على بعضهم دوماً، أخيراً غادروا بعد أن قالوا له:

– سلامتك..

جمع الموظفون السبعة والعشرون الذين يعملون في تلك الدائرة ثلاث ليرات وخمس ليرات من بعضهم، فتكونت لديهم مئة ليرة وراحوا يبحثون عن بدلة،

بمئة ليرة لا يمكن الحصول ليس على بدلة قديمة فقط، بل ولا على صورة بدلة. وبعد بحث وعناء عثروا على بدلة قديمة، لكن مقاسها كان أصغر من مقاس صاحبنا ذي الدخل المحدود.

استمر البحث أسبوعاً عثروا في نهايته على بدلة مستعملة تناسب مقاس صاحبنا ذي الدخل المحدود، لكن هذه البدلة ليس فيها أي شيء من الجدية، فهي بدلة رئيس عشيرة متتبعي الأثر. بمئة ليرة لم يستطيعوا العثور سوى على هذه البدلة، فقال بعضهم »هذه البدلة تصلح » بينما قال آخرون «هذه البدلة تفسد جدية الدائرة الرسمية »

أما المدير الذي يفهم في طراز الألبسة الرجالية فقد قال:

– من حيث أنها تصلح فهي تصلح، إنما تصلح في العرض الذي يجري في عيد الطفل في ٢٣ نيسان، أما عدا ذلك فهي لا تصلح أبداً !.

بحثوا أيضاً وأيضاً، إلى أن عثروا على بدلة ملائمة تماماً لذي الدخل المحدود، فقد ناسبت مقاسه، وكأنها خيطت خصيصاً له، ثم هي ليست بدلة تقليدية، فهي عبارة عن سترة سوداء من الجوخ السميك، وبنطال رمادي، ويبدو أنها كانت لأحد الولاة الذين صرفوا من الخدمة «لضرورات المصلحة » كانت البدلة رسمية جداً، وجَدِّيَّة جداً، لكنها كانت من طراز عام ١٩١٨.

ليكن فإذا ما لبسها صاحبنا ذو الدخل المحدود سوف يظن من لا يعرفه أن الملك فاروق قادم. عندما ارتدى ذو الدخل المحدود قميصاً أبيض، ووضع

ربطة عنق سوداء وارتدى بنطاله الرمادي وسترته السوداء صار مظهره جاداً تماماً، جاداً بحيث يمكن أن ترسله سفيراً فوق العادة إلى شاه إيران!.

ما إن خرج إلى الشارع حتى اتجه إلى مخفر الشرطة مباشرة، وما إن رأى رئيس المخفر ورجال الشرطة الرجل بهذا اللباس أمامهم حتى قفزوا من أماكنهم واقفين، وقد ظنوه أحد النواب أو الولاة.

– تفضلوا يا سيدي.. ما هي أوامركم؟

وإذا وجد ذو الدخل المحدود الأمور تمشي على ما يرام، قال:

– قبل عشرة أيام سطا لص على المنزل رقم كذا في الحي الفلاني وسرق بدلتين، هل ألقيتم القبض على اللص؟

– لص ؟ أمركم يا سيدي! تفضلوا هكذا.. استريحوا خمس دقائق.

– اعثروا على اللص بسرعة!..

قالها وغادر.

صار صاحبنا ذو الدخل المحدود رجلاً آخر ببدلته الرسمية تلك وصل إلى الدائرة، اتجه إلى طاولته بخيلاء وكبرياء.. وفيما كان يهم بالجلوس على كرسيه نادى على الآذن بصوت مختلف عن كل مرة:

– شاي!..

ثم انحنى يريد الجلوس على الكرسي..

«جاارررت! » سُمع هذا الصوت، إنه صوت تمـزق البنطـال الرمـادي. كان صوتاً مدهشاً، سمعه حتى المدير في غرفته الداخلية فخرج يتسـاءل مـا الـذي حدث.

ومنذ ذلك اليوم والموظفون يذكرون تلك الحادثة ويتضاحكون. أمـا صاحبنـا ذو الدخل المحدود فكان يقول:

– يا أصدقائي كم بنطالاً لي تمزق أو تفتقت خيوطه منذ سنوات وسـنوات، لكـن أيٌّ واحـد منـها لم يصـدر مثـل هـذا الصـوت. أي واحـد منـها لم يصـدر «جارت» هكذا. ما رأيكم إن صوت تمزيق البدلة الرسميـة مختلـف. وإن كـان «جارت» البنطال هكذا، فمن يدري كيف يكون " جارت " لابسه..

تلكم حادثة حقيقية حدثت لأحد ذوي الدخل المحدود.

* * *

تمت الترجمة في حلب

صباح الأحد ـ ١٩٩٩/١/٣ م

صدر للمترجم فاروق مصطفى

عن اللغة التركية

١- القميص الناري (رواية) خالدة أديب . دار العَلَم بدمشق ١٩٩١ .

٢- كيف ينقلب كرسي؟ (مجموعة قصص قصيرة) عزيز نسن.دار الينابيع بدمشق ١٩٩٢

٣- أي حزب سيفوز؟(مجموعة قصص قصيرة) عزيز نسن . دار المرساة باللاذقية ١٩٩٧

٤ – صراع العميان (مجموعة قصصية) عزيز نسن . دار عبد المنعم — ناشرون ، حلب ١٩٩٩.

أعمال قيد الطبع

١- رجل اليوم (مسرحية) خلدون طانر .

٢- ثلاث مسرحيات اراجوزية – عزيز نسن

٣- كيف ينقلب كرسي ؟ <<الطبعة الثانية >> .

أعمال قيد الإنجاز

١- إسكان العشائر في عهد الإمبراطورية العثمانية – البروفسور الدكتور جنكيز اورهونلو

٢- الاوغوز (التركمان) تاريخهم . تشكيلاتهم القبلية ، ملاحمهم . البروفسور الدكتور فاروق سومر .

٣- تاريخ السلاجقة والحضارة التركية الإسلامية . البروفسور الدكتور عثمان طوران.

٤- غريب (رواية) يعقوب قدري قره عثمان اوغلو .

٥- الاستبداد . للفيلسوف الإيطالي فيتوريو الفييري . عن الترجمة التركية للنص الإيطالي الأصلي للدكتور عبد الله جودت . الطبعة الثانية بمطبعة اجتهاد بمصر عام ١٩٠٨ .

المحتويات

الإهداء	٥
عزيز نسن في سطور	٧
صراع العميان	٢٥
ممنون جداً بمعرفتك	٤٥
انقلاب	٥٥
كلمة الافتتاح	٧١
مطلوب خادمة	٨٥
مَنْ عند مَنْ	٩٩
خادمكم عبدكم	١١٥
واخ ! واخ ! واخ !	١٣١
قصة رائعة	١٤٥
يحيا الوطن	١٥٧
سمسار	١٧١
هيا يا شباب	١٨٣
الصنابير بقيت مفتوحة	١٩٥
تمزق البدلة الرسمية صوته مختلف	٢٠٥



مترجم عن التركية

صدر له

- أي حزب سيفوز
- صراع العميان
- كيف ينقلب كرسي
- ثلاث مسرحيات أراجوزية

القميص الناري

حالدة أديب

رجل اليوم

حلدون طابر

أعزائي القــراء العرب

الأدب هو النور الذي ينير ظلمات البشــــرية ، إن خدع الامبريالية وأطماعها قد نجحت وللأسف في إبعاد الشعبين العربي والتركي ، أحــدهما عن الآخر ، هذين الشعبـــين اللذين كانا متعارفين جيداً في الماضي ، كان مطلوباً أن يعادا إلى الظلمات .

من غير الممكن أن يتعرف الشعبــان التركي والعربي ، أحــدهما على الآخر من خلال العلاقات بين الحكومات والتجارة فقط ، لا يمكن أن يتحابا دون أن يتعارفا عن كثب ، وهناك ما يمكن أن يؤدي إلى المعرفة المتبـــادلة بيننا بالتأكيد ، إنه شعرنا وروايتنا وقصصنا وحكاياتنا ، أو بكلمة واحدة : أدبـــنا .

عزيز

❋ ❋ ❋